العقلُ بين أوهامٍ واستنارةٍ

المؤلِّف

أ د. عقيل حسين عقيل

2024م

جدول المحتويات

المقدِّمةُ
4

اواهم العقل الفِكْريَّة
6
الصَّبرُ يكسر القيد:
25
العقل صبرًا تجاوز دونيَّة:
43
العقل يكسر اوهم الخلافة الفكريَّة:
51
الأوهام في دوائر التَّاريخ:
54
دائرة الأنا العسكريَّة:
60
أوهام الخلاف على السِّيادة:
68
أوهام تسقط وتبقى السِّيادة:
72
الفتنة الفكرية تسقط السِّيادة:
75
الأمن الوطني فكريًّا:
78
العقل يصنع الأمل ويمكن من المأمول:
86
العقل نُقلةٌ السَّماء إلى الأرض:
100

العقل نُقلةُ استخلافٍ في الأرضِ: 105

نُقلةُ العقل فكرًا بعد رَسُول الكافَّة: 115

العقل فكرًا نُقلة خِلافًا من بعد الخلافة: 122

الدَّولة القوميَّة: 128

الدَّولة الوطنيَّة: 133

استنارةُ العقلُ فِكْرًا: 142

المؤلّفُ في سطورٍ 169

صدر للمؤلّف 171

المؤلَّفاتُ المنشورة 173

المقدِّمةُ

العقل بين أوهامٍ واستنارة لا يعني أنَ العقل في حيرة من أمره، ولكن يشير في هذا الموضوع قيد البحث والدراسة إلى تلك المعارف التي لم تخضع للتقصّي العقلي الدَّقيق والمصنَّف؛ من حيث المفهوم والدّلالة، ومن حيث المعنى والحقيقة؛ مما يجعل البعض يأخذ بتلك المعارف المشوّهة وكأنَّها مسلّمات؛ في الوقت الذي فيه البعض ليس كذلك؛ ذلك لأنَّ المعلومة ليس دائمًا صادقة، أي إنَّها في بعض الأحيان تكون خاطئة ومضللة؛ ومن هنا علينا أن نميِّز بين الماء والسّراب قبل أن نفرّط في جرعة الماء، وعلينا بالمعرفة اليقينيَّة التي تسند أصحابها بلا زوابع؛ كونها الحقيقة سواء أكانت الحقيقة: علم يقين، أم حقّ يقين، أم عين يقين.

ومن هنا سيكون الجدل حاصلًا بين المستنيرين على البيّنة والحقيقة، وفي المقابل يكون الجدل بينهم والمغيّبة عقولهم بين حقيقة وباطل؛ أي بين من يعلم ومن يجهل، وبين من يدري ومن لا زال على أميّته مغيّبًا.

ولذلك أقدّم مؤلَّفنا إلى القرَّاء الكرام بموضوعيّة تمكّن من إظهار الحجج العلميّة المبطلة لتلك الخرافات، وتلك الأقاويل التي تُرسم بأصابع المتربّعين على سُدد الحكم وكأنَّهم المفتون ولا غيرهم.

فالعقل عندما تحتضنه تلك الأوهام والخرافات التي تفتقد إلى السّند العلمي والقانوني والموضوعي والأخلاقي يُصبح العقل مغيّبًا ومقيّدًا بقيود يجب كسرها؛ حتى لا يعم الجهل ويصبح السيِّد على أولئك التبّع الذين ليس لهم رأي حتى فيما هم عليه من أمرٍ وأحوالٍ؛ فمثل هؤلاء مسلوبو الإرادة يظلون في حاجة لمنقذٍ، ولا منقذ لهم إلَّا العقل الذي في حاجة إلى استنارة تخرجه من تلك الظُّلمة التي متى ما المت به جعلته مغيّبًا عن معرفة الحقيقة، ومغيبًا عن الملاحظة والمشاهدة التي تمكِّنه من المعرفة الواعية.

ولذا فالعقل بدون استنارة لا يتمكّن من الدّراية الواعية؛ كونه المغيّب عن المعرفة الحاسمة للأمر في أثناء كل خلاف واختلاف؛ ولهذا بعث الله تعالى الرُّسُل الكرام مبشّرين بالحقائق والمعجزات خلال قرون من الزّمن. أمَّا من بعد الرُّسُل فالأمر بين النَّاس شورى، ولهذا لا مفتي من بعد البيّنة الرّبّانيَّة، وكل شيء في الكتاب محفوظ.

ولأنَ الأمر أصبح من بعد الرِّسالة الخاتمة والرّسُول الخاتم شورى بين مَنْ يتعلّق الأَمر بهم؛ إذن لا داعي لتغفيل النَّاس عمَّا يتعلّق بأمورهم سواء أكانت أمور سياسيّة، أم اجتماعيَّة، أم اقتصاديَّة، أم إنسانيَّة.

أ د. عقيل حسين عقيل

2024م

اواهم العقل الفِكْريَّة

مع أنَّ الفِكْر مجموع الفكرة فإنَّ الفكرة ساكنة بين سلبيّة وإيجابيّة، وبين أنانيَّة وموضوعيَّة؛ ولذا فـالفِكْرُ صوغٌ عامٌ للأفكار والرّؤى وفقًا لما يستنتجه الصّائغ ويفسّره قبل أن يقدّمه للغير؛ ليكون بين أيديهم نظريَّة متكاملة تفيد معالجة ما وقعت فيه المجتمعات من أزمات سياسيَّة، واقتصاديَّة، واجتماعيَّة، وقد يكون الأمر متعلّقًا بشأنٍ علمي، فتكون النَّظريَّة المتحصّلة خير ما يفسّر المشكل، ويقدّم له حلًا، وفي المقابل قد تكون من بين الفِكْرُ فكرة تفسد ولا تصلح.

ولهذا عندما تكون الفِكَر: (مجموع الفكرة) إنتاج العقل، يكون الفِكْر هو إعمال العقل، وصوغه، وتفسيره، والفِكْر هو نتاج تلاقح الأفكار، وصوغها في بوتقة النَّظريَّات الاجتماعيَّة، والإنسانيَّة، والطَّبيعيَّة.

ومن ثمّ فالفِكْر هو عمل العقل في توظيف الفِكَر: (مجموع الفكرة) بغاية تفسير الحقائق والنَّظريَّات سواء

أكانت في مجال العلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، أم كانت في مجال العوم الطَّبيعيَّة.

والفِكْر هو الصّوغ العام لما وصل إليه العقل البشري من نتائج وتجارب، مع تطلّع ذهني لما يمكن أن يكون مأمولًا للأفراد، والجماعات، والمجتمعات، وتصوّر عملي يظهر القابليَّة للتطبيق وفقًا للنتائج المراد تحقيقها، وهو التنظير المرسّخ لسابق، أو المطوّر له، أو المتضادّ معه، أو المتجاوز لما سبق بحلول جديدة ميسّرة، وهو أوسع من الفكرة، حتى وإن كانت الفكرة من ورائه حيرة.

فالفِكَر (مجموع الفكرة) تلد الحلول، والفِكْر (التمركز العقلي) يتلقّفها، ويوظّفها، ثمّ يظهرها في صوغٍ مفسّر للظّواهر، والعلاقة واضحة بين الفِكَر والفِكْر الذي اتخذ صفته من الفكر ذاته؛ كونه لا يكون إلَّا منه، ولهذا كان التطابق بين الاسم والصِّفة، فالاسم فِكْر كونه ذو ذاكرة وذهن، وله ملكات التمييز والتفاعل التي من دونها لا تنتج الفكرة، ولا تصاغ الأفكار؛ وكونه صفة لأنَّ الأمر يتعلّق بما صاغه الفِكْر من أفكار، ونظريَّات، ومعارف تعكس واقع الفِكْر من حيث: المقدرة على العمل المنتج، وهذا يدلّ على العلاقة المباشرة بتلك المحفظة (الذَّاكرة)؛ وبذلك الذّهن العقلي الذي لا تكون المعارف إلَّا به، وهنا تطابقت الصِّفة مع الموصوف: (الفكْر الذي هو من الملكات العقليَّة مع الفكْر الذي هو ما يستخلصه العقل من حلول، ومعالجات للمعضل البشري)[1].

---

[1] عقيل حسين عقيل، من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017، ص 11 – 19.

أمَّا الفِكرة، فهي: مكمن الحُجَّة، والتصوّر العقلي، وهي تمتدّ من الذّهن إلى ميادين العمل فَتُفعل، وهي في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع بين أبدَاع واستقراء وتطوّر، ويترتّب عليها تقبُّل أو رفض، وبها تتحسّن الأحوال أو تسوء: (إصلاحًا، أو إفسادًا).

ويتطوّر فكر الإنسان بتوليد فكرة من فكرة، من المجرّد المدرك إلى الملاحظ المتهيئ إلى المشاهد، أو من المشاهد إلى الملاحظ، ثمَّ إلى المدرك، وهكذا تولَّد الفكرة من الملاحظ بما يجعلها في حالة من المشاهدة والتجرّد.

وفي الواقع إنَّ الأفكار نشاطات ذهنيَّة يقوم بها الإنسان؛ كونها خاضعة لإرادته إلى حدٍّ بعيد فهو في دائرة الممكن يُبدع الفكرة، بل يمكنه أيضًا أن يضع تصوُّرًا محدّدًا للصّورة التي ينبغي أن يكون عليها التنفيذ، وهو قبل كلّ هذا وذاك بإمكانه أن يخالف، أو يختار من بين عدّة أفكار ما يريد، وأن يرفض ما لا يريد؛ وبهذا ترتبط الأفكار بالإرادة على الرُّغم من أنَّ وجود الإنسان المريد لم يكن بإرادته.

وبناء على ذلك: هل نملك دائمًا حشد أذهاننا بشتّى أنواع الفكر؟ وهل نملك أبدًا حريَّة التنفيذ، وحريَّة اتخاذ قرارات بشأنها؟ وهل نملك أن نقف بمسارات تفكيرنا عند حدٍّ معين إذا ما تبدت لنا أفكار متسلّطة تسيطر على الذّهن دون أن نستطيع محوها بإرادتنا؟

أقول:

إنَّ كلّ ذلك ممكنٌ، ممّا يجعل الإنسان نفسه في حالة التخيير عندما تكون الإرادة في دائرة الممكن، ويجد نفسه في حالة التسيير عندما لا تكون الإرادة والقدرة في دائرة الممكن؛ ولذا في هذا العصر تزداد السّرعة في توليد الفكرة، وأكثر سرعة تظهر في التطوّر والتنوَّع المصاحب لها، فمن المعلومة تتولّد معلومات، ومن المهارة تتولّد مهارات، ومن الفكرة تتولّد أفكار، وهكذا من الخبرة تتولّد الخبرة، كما يتولّد الدّخل من الإنتاج في أسواق المنافسة الحرّة؛ فاليابان على سبيل المثال: لا تهتم كثيرًا بإنتاج الفكرة بقدر ما تهتم بتحسينها؛ وذلك لأنَّ مطالب السّوق كثيرة ومتنوِّعة، وإنتاج الفكرة يحتاج إلى زمن أطول، أمَّا تحسين الفكرة فزمنه أقصر إذا ما قورن بزمن إنتاجها، وهكذا الحال في كوريا الجنوبيّة التي تَعُد نفسها في حالة تنافس مع العقل الياباني في تحسين الفكرة، وسرعة تطويرها.

ولهذا فالفكرة نُضج تدبّري تحمل في أحشائها حلًّا، والخوف دائمًا يبحث عن حلٍّ، فالخوف يثير العقل تفكرًا وتذكرًا، وتدبُّرًا، حتى يقتنص الفكرة التي فيها يكمن الحلّ؛ ولذا لن يكون الخلاف أمنًا إلَّا في الفكرة المقتنصة حلًّا، أمَّا عندما يكون العقل بين هذا وذاك في حيرة الفتنة فلا شكَّ في أن تكون الأنانيَّة متصدرة المشهد.

ومن هنا فالفكرة تحملها الكلمة بين مرسلٍ ومستقبلٍ، وهي تحمل قضيَّة تُقدِّم حلًّا يُخرج من التأزُّمات، أو يُدخل فيها، فكثير من الأسوياء والعلماء، والمفكِّرين العظام يَجدّون في إنتاج الفكرة التي تحمل حلًّا يُخرج من التأزُّمات، والبعض الآخر يكيد، أو يمكر، أو

يخالف، ويفتن، ويحسد ظلمًا وأنانيَّةً، فيُسخِّرون فكرهم وما يمتلكون أحيانًا من أجل إشعال نار فتنة يعدونها حلًّا.

ولنقف قليلًا على ما جرى في الصَّومال من تدخل أجنبي كان مؤسَّسا على فكرة تحمل حلًّا لأزمة من وجهة نظر المتدخّلين الأجانب، ثمّ بعد أنْ لاقوا المقاومة الشديدة من أبناء الصّومال، جاءت فكرة الانسحاب ونُفِّذت؛ كونها تَحِلَّ حلًّا مؤسَّسًا على فكرةٍ كلّما اشتدّت التأزُّمات فُرجت؛ فاشتدّت التأزُّمات، ولكنَّها لم تُفرجِ بعد بأسباب الفكرة المتجدِّدة التي ترى في اشتداد التأزُّمات حلًّا.

وفي دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع الفكرة تتعرّض لمواجهة الفكرة؛ ممّا يجعل نيران الاقتتال والفتنة كلّما انطفأت اشتعلت من جديد، وعلى وجه السُّرعة، فالوطن عندما لا يكون الرَّأي فيه مؤسَّسًا على فكرة حلّ التأزُّمات لا يمكن أن يأمن مواطنوه، وإن لم يشتدّ الخوف في نفوسهم على مستقبل أبنائهم ووطنهم وحرّيّتهم، فلن يبلغوا حلًّا يجمع شتات أبناء الأمَّة إرادة في ممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمْل المسئوليَّات الوطنيَّة، سياسةً، واقتصادًا، واجتماعًا.

وكذلك فما جرى في العراق كان مجرَّد فكرة تحمل حلًّا من وجهة نظر الآخر مع مشاركة بعض من أبناء الوطن، نُفِّذت الفكرة التي ترى أنَّ القضاء على الرَّئيس السَّابق صدام حسين، وحزب البعث هي الحلُّ، ولكن مع أنَّ حكم الإعدام نُفِّذ في الرَّئيس صدام حسين بعد احتلال البلد، وحُرِم حزب البعث من المشاركة في السُّلطة، فإنَّ

التأزُّمات ازدادت شدّة على المواطنين، فالذين لم يكونوا آمنين في عصر صدام لا يزالون غير آمنين، ثمّ أزداد عليهم عدد من غيرهم من الذين كانوا آمنين في عهده، فأصبح الجميع غير آمنٍ، حتى كتابة هذا المؤلف، ومع أنَّنا نأمل أن يأمن شعب العراق وترابه، فإنَّنا نرى معطيات التأزُّم تظهر بين الحين والحين، من خلال ما نراه من خلاف مع تدخلات إيرانيَّة، وصراعات طائفيِّة سُنَّة وشيعة، عربًا وأكرادًا، وديانات متعدِّدة من عبدة الله إلى عبدة الشّ يطان، وأخرى كثيرة منها ما يُختشى من ذكره، وثروة مبعثرة في غير أوجه الرِّعاية الاجتماعيَّة، وهذا بالتمام كان نتاج استنساخ الفكرة المنفَّذة في الصّومال، انسحاب أمريكي أعقبته صدامات واقتتالات بين تلك التركيبة المبعثرة، ومع أنَ الوطنَ واحد فإنَ الشَّعب وكأنَّه لم يكن واحد، ومن هنا سيكون الخوف على الوطن ضرورة.

بكلِّ أسف فالأمر في الوطن العربي مُعسَّر لا ميسَّر؛ ذلك لأنَ المواجهة هي سيدة الميدان بين الفكرة والتأزُّمات؛ فالفكرة كلّ يوم تولِّد فكرة وفي مقابل التأزُّم كلّ يوم يولِّد تأزُّمات والأنانيَّة هي سيدة الميدان.

واذا نظرنا إلى خريطة الفكرة في أقطار الوطن العربي، نلاحظ مكامن وأماكن التأزُّمات على وجوه مواطنيه، وعلى تضاريسه، وجباله، وسهوله، ووديانه، وشواطئه، وأنهاره المغرية للآخر الذي كان ينظر إلى أهميَّة وضرورة انفصال أقاليم جنوب السُّودان عن أقاليمه الشماليَّة، حتى تحقّق ذلك على يديه، وعلى حساب وحدة السُّودان الذي من بعد الانفصال ادخلوه في معارك داخليَّة أساسها الصِّراع على السُّلطة، وهذه علَّة العرب من يتم اختياره بإرادةِ

الشّعبِ يتم الانقلاب عليه من قبل العسكريين؛ بغاية أن تدار الدّولة (بالأوامر التي تصدر من رأس الهرم، ولا خيار لقاعدة الهرم إلَّا قبول الأمر والتسليم، ومن يخالف ذلك يوصف بالمتآمر فيسجن أو يتم التخلص منه إعدامًا وأمام النَّاس؛ وذلك بغاية أن يأخذ الجميع درسًا لا رأفة من وراءه.

ومن هنا فإنَّ أصحاب تلك الفكرة (فرّق تسد) ما زالوا على قيد الحياة فاعلين، وبالنسبة إليهم إن لم تنتهِ خلافات السّودانيين فثمار الخلاف وفقًا للفكرة لا بدّ أن تؤدِّي أيضًا إلى انفصال إقليم دارفور.

ومع أنَّ فكرة تقسيم الوطن العربي مجسّدة على خطة أجنبيَّة فإنَّ الأمر قد لا يتحقّق إذا ما بلغت عقول العرب الصَّحوة والنَّهضة، ولكن إن لم تبلغ الشُّعوب الصَّحوة فسبق لنا أن قلنا في مؤلّفنا: الخوف وآفاق المستقبل: (إنَّ ما يجري في اليمن السَّعيد لا هدف من ورائه إلَّا إبعاد السّعادة عن أهله؛ ليكون يمنا بِلا سعادة؛ ولذا يا ليت أهله يفيقون؛ لكي تبقى السَّعادة مِسك ترابه وعطره الفوَّاح، ولكن لن تكون السّعادة فيه ما لم يتم الاستيعاب بين الأنا الآخر، ويجلسان سويًّا بتنوّعاتهم الفكريَّة، والثّقافيَّة، دون أن يغيَّب أو يقصي أحد أحدًا.

وما يجري في اليمن اليوم هو بحقّ تجسيد لفكرة (فرّق تسد)، وكما نعتقد لن تكون حدودها تراب اليمن، بل متمِّمات الفكرة على أرض الواقع هي دول الخليج، وعلى وجه الخصوص المملكة العربيَّة السعودية؛ وذلك

لِما تمتلكه من إمكانات وخيرات كثيرة، وما فيها من أماكن مقدّسة، ومقامات عِظام، وما فيها من ثروات[2].

فالمملكة العربيَّة السّعوديَّة أصبحت ترسم خريطة ناهضة؛ بغاية أنْ لا تكون تحت أيَّة هيمنة أجنبيَّة؛ ومن هنا استشعرت الولايات المتحدة الأمريكيَّة بهذه الغاية؛ فبدأ الغضب بين الحينة والأخرى يكاد أن يكون ظاهرًا، وبخاصّة بعد أن حدث التقارب بين السعوديَّة والصّين وروسيا. ولكن قبول هذا الأمر بدون شكّ لن يكون هينًا على أصحاب الفكرة الملعونة (فرّق تسد). ومع أنَ الأمر صعب فإنَ القاعدة المنطقيَّة تقول: (إنَ الصِعاب لا تستطيع أنْ تصمد أمام متحديّها). وبخاصّة إنَ الصّين اليوم لم تعد ذلك الدُّب الصّامت، ولم تعد من ذلك العالم الذي أطلق عليه أيَّام الحرب الباردة مسمى العالم الثَّالث، بل إنَّها الدّولة التي صعدت بعد أن قبلت بتحدّي الصِّعاب حتى قهرتها في الفضاء غزوًا، وها هي على الأرض تغزو.

ومع أنَّ البعض يرى في استخدام القوَّة حلًّا، فإنَّنا لا نرى حلًّا إلَّا في الجلوس على طاولات التفاهم، والتفهُّم، فاليمن وطن لجميع اليمنيين، وليبيا وطن لجميع الليبيين، وسوريا وطن لجميع السّوريين، وهكذا كل وطن من أوطان العرب هو ملك لمواطنيه جميعًا، وهذه قاعدة، أمَّا الاستثناء: أنْ يحتكر البعض السُّلطة، أو الثّروة ويحرم الآخرين؛ ولذا فإن حدث ذلك تحت أيّ مبررٍ فإنَ العداءات والفتن والاقتتالات لا تستمدّ حيويَّتها إلَّا منه.

---

[2] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، ص 281، 2011.

ولهذا لا أفضليَّة ليمني على يمني في بلاد اليمنيين، ولا أفضليَّة لليبي على ليبي في بلاد الليبيين، ولا أفضليَّة لعراقي على عراقي في بلاد العراقيين، وهكذا في كلِّ الأوطان لا أفضلية لمواطنٍ على مواطنٍ، ومن هنا يكتسب المواطن حقه في المواطنة، ولكن إن حُرِم مَنْ حُرم من حقِّ المساواة الوطنيَّة فلا بدَّ أن يصبح غاضبًا، ومن ثمَّ فلن يكون سويًّا ممّا يجعله يميل إلى ما يُفسد، ولا يجنح إلى ما يبني ويعمِّر، ولهذا يتم الصاق التهم به منحرفًا ومجرًا ومتآمرًا فيُقبض عليه، وتُلصق به كلّ التهم، وتُلفَّق له المؤامرات، ما يجعل مصيره في دائرة الممكن بين السّجن والإعدام.

كلُّ هذه الأعمال والأفعال ليست بغريبة على شعوب العالم الموصوف بالثَّالث.

والسُّؤال هنا: من يا ترى سيكون المدان تاريخًا: المحروم، أم الحارم؟

أقول: الظَّالم ومن يكون.

ولتبيان ذلك أقول: نعم إنَّ الوطنَ واحد، أمَّا الشَّعب بما هو عليه من فروق فرديَّة، وجماعيَّة، واجتماعيَّة فليس بواحدٍ، ولهذا لا يمكن أن يكون أبناء الشَّعب مثل ورق السَّحب، وكأنَّهم نسخة واحدة بعضهم من بعضٍ، وهذه مشيئة الله في خلقه: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّة وَاحِدَة وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَّنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[3].

---

[3] هود: 118، 119.

وعليه:

فأين مكامن الخوف على الوطن؟ أي مَن هو الأحرص عليه من غيره بما أنَّه وطن الجميع؟

أقول:

لا داعي للتفضيلات التي من خلالها يدَّعي البعض بأنَّه أحرص على الوطن من غيره: (من بني الوطن)؛ وذلك بعلل منها: أنَّه الحزب الحاكم، أو القبيلة الحاكمة، أو الأسرة الحاكمة، أو أيّ عذرٍ من الأعذار التي لا سرَّ من ورائها إلَّا احتكار السُّلطة، ولهذا فمن يرى نفسه قمَّة الوطن، وغيره لا يمكن أن يكون قمَّة فيه، فهو بطبيعة الحال سيكون أكثر من يدفع ثمن المواجهة مع الكلِّ، الذين لم يرهم على علاقة بالوطنيَّة مطلقًا؛ فعلى سبيل المثال: لا يمكن أن يكون المسلمين في مصر أكثر وطنيَّة من المسيحيين، وفي المقابل لا يمكن أن يكون المسيحيين أكثر وطنيَّة من المسلمين فيها، وكذلك في ليبيا لا يمكن أن يدَّعي الأمازيغ الوطنيَّة أكثر من العرب، أو الطوارق، أو التبو الليبيين، ومن يدَّعي منهم ذلك فقد عمل على إيقاد نار الفتنة بين بني الوطن، وجعل بينهم خلافًا وأنانيَّة.

ولسائل أن يتساءل:

ما الحلُّ البديل؟

أقول:

الحلّ لا فتنة.

فإن وُجدت الفتنة، وتمَّ القبول بها وكأنَّها الحلّ، سيكون الجميع دافعين للثَّمن.

ولسائل آخر أن يتساءل:

وأين يكمن الحلّ؟

أقول:

الحلُّ ما سبق قوله في مؤلَّفنا: (الخوف وآفاق المستقبل) "يكمن في اليمن السعيد، فعليكم يا أبناء الخليج، ورجالاته المحترمين باجتثاث الفتنة من اليمن؛ لأنَّكم أنتم المستهدفون أوَّلًا، وما اليمن إلَّا نقطة البداية، فأصحاب الفكرة جعلوا اليمن البيئة والتربة الصّالحة لزراعة ما يشتهي أصحاب الفكرة خارج حدودهم الوطنيَّة، وما يزرعونه أصحاب الفكرة في اليمن هو: (فرّق تسد) هذه الفكرة يراد لها أن تنتشر في دول الخليج، والتي ستزداد نشاطًا عندما تلتقي بتلك المتمّمات الفكريَّة التي تمّ بذرها في بلاد العراق"[4] . وباستثناء أصحاب القضايا سيجد بعض المجنَّدين أنفسهم: (من الشَّعب والحكومة) أنَّهم بذرة من تلك البذور المنثورة؛ لتكون طُعمًا في أفواه الغافلين، والغافلون هم الذين يعطون أصحاب الفكرة مبرِّرًا للتدخل الذي به يتمّ احتلال تراب الوطن، أو احتلال جزء منه، فالغزاة الذين يملؤهم الخوف من الأزمة الماليَّة والاقتصاديَّة والمائيَّة والغذائيَّة لن يتأخروا يومًا عن مواعيد تنفيذ فكرتهم، بل يمكن أن يستقدموا موعدهم الذي ضمَّنوه في الفكرة.

---

[4] المرجع السابق، 281- 282

فالصُّومال بدون شكّ كانت دولة ذات سيادة آمنة الحدود، واليوم الصَومال ليست كما كانت، ولا كما يجب أن تكون عليه نهضة ورفعة؛ ولذا فـإنْ أراد أهلها والعرب للصومال أمنا فعليهم بقبول المتناقضات من أجل صوغ فكرة تستوعب الجميع، وتقبلهم دون أن تستثني أحدًا من المشاركة في إدارة شؤون البلاد، وتحفِّزهم على العمل، وتدفعهم إليه دفعًا، دون أن يغفلوا عن حشد الطَّاقات وبخاصّة الشبابيّة منها؛ ذلك لأنَّه إذا شبَّ الخلاف، وشبّت نيران الفتنة في ركن من أركان الوطن العربي، فلا تقف عند حدٍّ منه، ولن تتأخِّر عن ركن من أركانه.

فاليمن اليوم لم يعد ذلك اليمن الذي كان فيه سد مأرب العظيم هندسةً وتاريخًا، ومملكة سبأ وحضرموت حضارة ورفعة، إنَّه اليوم على اعتاب التقسيم إن لم يعي أهله خطورة ذلك من قِبل أهل تلك الفكرة (فرّق تسد)؛ التي ترى العرب عبر التَّاريخ لا يستسلمون مع أنَّهم يُهزمون وينكسرون في مرَّاتٍ من التأزُّمات حالكة الظُّلمة.

وعليه:

لِمَ لا يُعيد العرب التفكير في شؤونهم أكثر من مرّة حتى يبصروا سُبل النجاة من تلك الفكرة التي لا تراهم إلَّا رعاة؟ لِمَ لا يروِّضون أنفسهم بتحدّي الخلاف الذي قسَّمهم بين شرق وغرب: (تُبّع ليس إلَّا)؟ لِمَ لا ينفقون أموالهم على رفعة الحياة السِّياسيَّة، والاقتصاديَّة، والاجتماعيَّة، والعلميَّة، ويتحوَّلون إلى الإنتاج بدلًا من حياة الاستهلاك؟ لِمَ يدفعون أموالهم في شراء الأسلحة التي لا تكسَّر إلَّا بأيديهم على رؤوسهم؟ لِمَ لا يستثمرون

ثرواتهم علمًا وتخطيطا استراتيجيًّا؟ لِمَ لا يفكِّرون فيما يفكِّرون فيه قبل أن يقدموا عليه؟ لِمَ لا يميّزون بين ما يجب، وما لا يجب؟ لم لا يميّزون بين الخلاف مع الأهل، والخلاف مع الأعداء؟ لِمَ لا يتَّقون الله في أنفسهم وأهليهم؟ لم لا يقضون على الأنانيَّة والفتنة التي بُذرة في أنفسهم ببذورٍ خارجيَّة؟

إنَّ دول العربيَّة كغيرها من دول العالم، فيها من التطرُّف والتعصّب ما فيها، وفيها من التعدّد المذهبي والخلاف بين الأقارب والأباعد ما فيها، أي فيها ما يكفي لبث كلّ ما من شأنه أن يُحدث تأزُّمًا، ولهذا فإنَّ معطيات اشتعال نيران الفتنة متوافرة إنْ لم يتمّ استيعاب كلّ متغيّر من المتغيرات الاجتماعيَّة، والدِّينيَّة، والسِّياسيَّة، والفكريَّة، والثَّقافيَّة، والنَّفسيَّة، وصهرها عقلًا في بوتقة الفكر الذي يسمح بأن يكون لكلٍّ حقوقه، وعلى كلٍّ واجباته، ولكلٍّ مسئوليَّاته، وفقًا للصلاحيَّات والاختصاصات المقدّرة قانونًا، أو دستورًا، أو عرفًا ودينًا.

وما يلاحظ في بلدان الشَّام قيادات وأحزاب تحت مظلّة الثَّقافة والدِّين والطّائفيَّة، والتي مهما حاولت أنْ تكون حذرة فلن ينفعها الحذر مع قدرة صاحب الفكرة الذي يتلاعب كلّما شاء ببعض عناوينها، وبخاصَّة أنَّ دول الشَّام دول حدوديَّة مع دولة إسرائيل: (الشّوكة) التي وَخزت تراب الوطن الكبير، ومع أنَّ الشّوكة مؤلمة، فإنَّه لا يحسّ بآلامها إلَّا من وخزته؛ ولذا فالذين لم تكن موخوزة في ظهورهم لن يحسّوا بما تتركه من ألم، ولهذا فهم لا يبالون بصريخ تلك النّسوة، وأولئك الأطفال الذين يصرخون من شدّة آلامها، فالذين هُتكت أعراضهم في

فلسطين وإن اتفق السَّاسة؛ فكيف لا يثأرون؟ والذين هُدّمت مساكنهم، ومدارسهم، ومساجدهم على رؤوس أهليهم فكيف لا يثأرون؟ والذين طُرِدوا من مزارعهم، ومصانعهم، وقتِّل من قُتل من أهلهم فكيف لا يثأرون؟

أقول:

لا يمكن أن يطمئن أبناء الوطن ويأمنون ويزول الخوف من أنفسهم ما لم تُزَلْ الشّوكة التي تضايقهم في ظهورهم ألما بحلّ مرضٍ لقيام الدّولتين؛ ولذا فالفكرة التي تقول: يجب أن يعيش الإسرائيليّون والفلسطينيّون إخوة متحابّين في دولتين مستقلتين ذات حدود سياديَّة آمنة ليست معيبة، بل إنَّها ضرورة لأمن المنطقة كاملة، وإن لم يتم ذلك إرادة ستكون الحياة فيها ليست آمنة، ولا مستقرّة، ما يجعل الأمر دائمًا وكأنَّه بين صيادٍ وطريدةٍ.

وعليه:

أين صفقة القرن؟

الصّفقة لغة هي: نتاج بيع وشراء، أو تبادل سلعة بسلعة.

أمَّا اصطلاحًا فهي: تسليم بعض المعقود عليه أملًا دون تسليم بعضه الآخر.

ولذا علينا أن نميِّز بين قبول حلّ الدَّولتين، وقبول صفقة القرن؛ فقبول حلّ الدَّولتين يتطلَّب اعتراف الطَّرفين: (الفلسطيني والإسرائيلي) بأهميَّة بعضهما وجودًا إنسانيًّا، وفقًا لحقوق تمارس، مع قبول التميز المقدّر لكلّ خصوصيَّة تتعلّق بالطَّرفين.

أمَّا قبول الصَّفقة فيعني ضمنيًّا قبول أحد الأطراف بالمنقوص؛ وذلك وفقًا للتعريف الاصطلاحي لمفهوم: (الصَّفقة) الذي يحتوي على تسليم بعضٍ من المعقود عليه، ولا يحتوي على تسليمه كاملًا.

ولأنَّ صاحب الصّفقة غير محايد: (الرَّئيس الأمريكي السابق دونالد ترامب)، إذن: ومن دون شكٍّ سيكون النّصيب المنقوص نصيب الفلسطينيين، ولكن بعد سقوط الرَّئيس ترامب من سدّة الحكم فالأمر سيعود للحوار والتفاوض بغاية إخماد نيران الفتنة وإقصاء الأنانيَّة المميتة.

هذا بالتمام ما قلناه في زمن حكم الرّئيس ترامب في مؤلّفنا: أوهام الأنا (اللاهويَّة)، ولكن اليوم كما سبق أن قلنا لم يعد لتلك الصّفقة مناصرًا، ولا حتى من يذكرها على قيد الحياة وجودًا[5].

ولهذا سبق وإن قلنا: إذا قبل الفلسطينيون بعنوان صفقة القرن، فلا داعي للاعتراض على المنقوص، أي: بما أنَّهم قبلوا بها فهم ضمنيًّا قبلوا الصّفقة منقوصة.

وهنا أقول: في إدارة السِّياسة علمًا، يجب التبيُّن دلالةً ومفهومًا قبل الإقدام على الفعل.

ولأنَّ حلّ المشكل الفلسطيني الإسرائيلي يتعلّق بالوجود، والسِّيادة الوطنيَّة، والهويَّة الفلسطينيَّة فلا يليق بحل المشكل صفقة: (كَسبَ من كَسبَ، وخسر من خسر)، وكأن القضيَّة لا تزيد عن كونها سلعة.

---

[5] عقيل حسين عقيل، أوهام الأنا (اللاهويَّة) المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة 2022 م، ص 88.

وعليه: لا أعتقد أنَ الأمر هكذا هينٌ، بل أراه شديد التعقيد، وحتى إذا افترضنا قبول بعض الفلسطينيين بالصَّفقة، ألا يكفي أنَّها ستكون مرفوضة من قبل البعض الآخر؟ وفي ذات الوقت يمكن أن ترفض من قِبل جميع الفلسطينيين، وهنا سيزداد التأزُّم تأزُّمًا، مع العلم أنَ معظم دول العالم قد لا تأخذ بالصَّفقة، ممّا يجعل العودة إلى الخلاف، والتخندق والتمترس والاقتتال، وبخاصَّة أنَ القوَّة الصَّاروخيَّة في المنطقة في حالة ازدياد مع تطوّر معلوماتي وتقني، فالمشكلة مملوءة خوفًا؛ ولذلك فلن تحلّ إلَّا بسلام إرادي؛ ولذا فتعنُّت حكام إسرائيل لا يؤدِّي إلَّا إلى التطرُّف، والرَّفض، حتى وإن رضيت بعض الحكومات بالصَّفقة واعترفت بدولة إسرائيل وأقامت علاقات معها.

ومن هنا فالحدود بين جنوب الدَّولة اللبنانيَّة مع دولة إسرائيل المرابط حزب الله عليها ستكون الدِّماء فيها غالية الثَّمن، فحزب الله المستهدف بالفكرة المصاغة في الغرب، ومقدمات رؤوسها تظهر بين الحين والحين، لا يستهان بأثرها إن لم يتمّ تفادي الأمر بفكرة قيام الدَّولتين بدلًا من تسويق صّفقة الرّئيس السَّابق ترامب على حساب الفلسطينيين ولاعتراف بقيام دولتهم المستقلة.

ولأنَ العرب وإن اختلفوا، أو تخالفوا هم كثرةٌ سكانيَّةٌ في المنطقةِ، فلا إمكانيَّة للغة المغالبة كرهًا، وممن تكون.

وستظل مصر الصَّخرة الضَّخمة والمتينة التي ستتحطَّم عليها كلّ الألاعيب التي تدار ضد العرب، والفكرة الاجنبيَّة لا تواجهها صعوبة إلّا في مصر، فالمصريون

بطبعهم أهل حضارة وثقافة، يفهمون التَّاريخ جيدًا كما يفهمون السِّياسة، فالمصريون قد يسايرونك أدبًا واحترامًا مع وافر اللين، ولكنَّهم لا يقادون خوفًا، ولا طمعًا.

ومع أنَّ الدِّين متغيّر رئيس في تغيير الأحوال من سالبة إلى موجبة، فإنَّ الذين يعتقدون فيه تطرُّفًا، وتعصّبًا، واقصاءً للآخرين واهمون؛ ذلك لأنَّ الدِّين لا فوقيَّة فيه، ولا تغييب، ولا إقصاء؛ إذ لا إكراه في الدِّين، والأمر بين النَّاس شورى، والمجادلة بالتي هي أحسن؛ ولهذا فالدِّين استنارة في الأنفس والقلوب والعقول، يرشد للإصلاح، ومقاومة الفساد، وكفّ سفك الدِّماء بغير حقّ، دون تمييز بين النَّاس في ممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمْل المسئوليَّات.

ولذا كما قرَّرَ أصحاب الفكرة في دائرة الممكن المتوقَّع في هذا القرن الواحد والعشرين أن يغزوا أرض الصُّومال، قرّر الصّوماليون حبّ الموت حتى حرّروا أراضيهم، وهذه عِبر التَّاريخ، وهي من طبائع العرب، وهكذا ستكون القرارات في بقيَّة الأقطار العربيَّة إن عدتم عدنا، والبادئ أظلم، وفي النِّهاية دائمًا ينتصر أصحاب الأرض في الوقت الصّحيح إن لم يتأخروا عن دفع الثَّمن واجب الدّفع، وعلى أيَّة حال فـإنْ تأخّروا تأخَّر طرد المستعمرين عن تراب أوطانهم.

أمَّا المغرب العربي فالملاحظ أنَّ ألوان طيفه موزَّعة بين بني سليم، وبني هلال، وأمازيغ، وطوارق، وتبو، وغيرهم من العرق الزنجي؛ ولذا فأمر التركيبة الاجتماعيَّة

لم يكن خافٍ عن أصحاب الفكرة؛ ولذا فهم متى ما شاء لهم القدر شاءوا.

ولأنَّ المغرب العربي يشكّل جبهة جغرافيَّة، وتاريخيّة في مواجهة الغرب الذي رازهم وزنًا مرّات عدّة: احتلالًا، وتقتيلًا، واستشهادًا، ونصرًا وتحريرًا، فقاعدته المنطقيَّة لا تختلف مع تلك التي أقرَّها عرب الخليج، ومصر، والشَّام، والعراق، والسُّودان، والصُّومال وهي: (إن عدّتم عندنا، والبادئ أظلم).

وعليه: إنْ لم تكن أنفسنا مملوءة خوفًا ممّا يحاك ضد شعوبنا وأوطاننا، وديننا، ومستقبلنا، وحرّيَّتنا فلا يمكن أن نكون مشاركين في صناعة المستقبل الإنساني، الذي تبرز بعض من رؤاه باسم العولمة التي ما زالت تتخبط ولن يتضح أمرها إلَّا بعد أن تأخذ المعادلة السِّياسيّة والاقتصاديَّة تموضعها من جديد؛ وذلك بعد دخول الصّين إلى ميادين التحدّي والمنافسة الحرّة، وعلينا أن نعرف أنَّ عصر جان جاك روسو وعقده الاجتماعي قد ولّى؛ إذ لا مكان اليوم لفرض الرُّؤية الواحدة، والقبيلة الواحدة، ولا مكان للتوريث كرهًا، ولا مكان للإقصاء، والتغييب، والتحقير، والتعذيب، وتزوير الانتخابات، كلّ شيء في مرضاة النَّاس على البلاطة، ولا شيء لإكراههم؛ ذلك لأنَّ زمن الحكم من على ظهر الدّبّابات قد ولى كما ولى عهد موسوليني، والفاشيّة، والماركسيَّة، وبدأ يظهر في الآفاق عصر النَّاس سواسية أمام القانون، كما هم سواسية أمام الله، وبدأ يظهر عصر انتهاء المتناقضات بسيادة التنوُّع، واستيعاب الآخر وتقبُّله هو كما هو من أجل أن يصبح على ما ينبغي أن يكون عليه في أحسن تقويم.

وهنا نقول للذين اتخذوا مدينة أفلاطون أنموذجًا لمدنهم في القرن العشرين: إنَّ زمن مدنكم قد ولَّى فمدينة أفلاطون التي تُدعى بالفاضلة هي في حقيقة أمرها ليست فاضلة، فلو كانت فاضلة، هل يُقبل أن تكون مدينته فاضلة والمرأة فيها تُحرم من ممارسة السُّلطة؟ وهل يمكن أن توصف بالفاضلة والعبيد فيها أكثر من الأحرار عددًا، وهم جميعهم محرومون من ممارسة السُّلطة؟ وهل يمكن لأحدٍ أن يصفها بالفاضلة وهي تَحرم المعاقين، وكبار السّن من ممارسة حقوقهم الطَّبيعيَّة، وتدعو للتخلّص منهم أحياء في مواجهة الطَّبيعة؟ وهل لمن يمتلك أخلاقًا، أو فضيلةً، وقيمةً حميدةً أن يقبل بقانونها الذي سنَّت فيه: أن تمارس المرأة الرّياضة عاريةً أمام الرِّجال، وأنَّه لا مكانة فيها للأسرة، فالنِّساء الحسناوات حقّ مشاع للفلاسفة، أمَّا اللاتي لا جمال لهنَّ فحالهن كحال العبيد؟

ولمتسائل أن يتساءل:

لماذا وصل الحال بالنَّاس إلى هذا الحد؟

أقول:

لأنَّ الجُبن في أنفسهم حلَّ محلَّ الخوف.

ولأنَّ الخوف هو صانع المستقبل فهو بلا شكّ سيكون المحرّر للعبيد.

ولسائلٍ آخر أن يسأل:

متى يتحرَّر عبيد الأنظمة السُّلطانيَّة؟

أقول:

عندما يرون أنفسهم عبيدًا لله تعالى، لا عبيدٌ للسُّلطان، ولا للمادَّة، ولا للشَّهوة المفسدة لمكارم الأخلاق، ولهذا دائمًا الخوف من الله يُحرّر العبيد من العبيد، فكلّ شيء تخافه تهرب منه، إلَّا الله تعالى من خافه فرّ إليه: (فرَّ من سخطه إلى رضوانه)، ومن وعيده إلى وعده، فلا ملجأ ولا مَنجى منه إلَّا إليه[6].

الصَّبرُ يكسر القيد:

الصَّبر في دائرة النِّسبيَّة غير مطلق؛ ذلك لأنَّه ذا علاقة بالاستطاعة والمقدرة، ومع ذلك فإنَّ الصَّبر على تحدّي الصّعاب يكسر قيدها، ومن هنا فإنَّ الصَّبر على الأمر تحدّيًا يُمكّن من احتماله دون شكوى ولا انتظار ملجئ يمكن أن يتم الالتجاء إليه إلَّا لله تعالى: {وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا}[7] مفهوم هذه الآية يشير إلى القلق والاستعجال الذي لا يكون إلَّا على حساب بقاء الصَّبر صامدًا لا يهتز ولا يتزعزَّع، وفي المقابل لا يزاح الاهتزاز ولا يتزعزَّع إلَّا بالصَّبر؛ فكن صبورًا على غايات عظيمة تبلغها وتجني ثمارها وتبلغ القمّة وتكتب لك الرّفعة.

ومع أنَّ القيد في مفهومه مادّي محسوس، فإنَّ استمداد المفهوم منه امتدَّ به إلى ما يقيد الإرادة ويقيد ممارسة الحرّيَّة وأساليبها؛ ولهذا فكما أنَّ السّجن قيدٌ،

---

[6] ناصر الزهراني، الله أهل الثناء والمجد، ص 681.

[7] الكهف 68.

فكذلك المنع من ممارسة الحقوق، وأداء الواجبات، وحمل المسئوليّات قيدًا.

ومن هنا فالقيد ما يعيق الحركة الحرَّة، ممّا يجعل المتحرِّك في حالة عدم توازن، وهنا لا أعني به قيد الحيوانات، بل أعني به قيد الحرّيَّة، إنَّه القيد الذي لا يُكسر إلَّا بالتحدّي، والقيد الذي ينبغي أن يتمّ تكسيره هو ذلك القيد الذي أنتجته المظالم والإقصاءات التي تحرم البعض من ممارسة حقوقهم بإرادة، وهو نتاج تلك الإجراءات التي تغيّب العدالة وتُقَوِّض الفضائل الخيّرة والقيم الحميدة، وتُمكّن البعض من الهيمنة على ممارسة السّلطة واحتكار الثَّروة في مقابل حرمان البعض منها.

ولذا فكلّ ما يُقيّد حرّيَّة الإنسان يعد قيدًا (فينبغي أن يُكسّر)، ومثل هذا القيد لا يكون إلَّا بعلل أفعال المظالم وأعمالها، ومن ثمّ يعد القيد استثناءً، في مقابل القاعدة التي لا ترى الإنسان إلَّا حرًّا؛ ولهذا فكسر القيد يستوجب صبرًا يدعم القاعدة ويقوّض الاستثناء.

والقيد مع أنَّه مولود الفكرة، فإنَّه لا يعد قيمة، بل الذي يعد قيمة ومنبعًا لتحقيق الآمال هو الصَّبر على كسر القيد؛ ومع ذلك لو لم تكن الفكرة ما كان القيد؛ فالإنسان عندما لم يستطع ضبط نفسه عن إرادة، فكّر حتى أوجد قيدًا لضبطه، وبعد أن قُيّد به، بدأ يبحث تفكيرًا معمَّقًا في كيفيَّة فكّه وبكلّ ما يتيسّر له من حِيل، ومع ذلك بقيت حياته بين القيد وفكّه؛ ولذا فإذا أراد الإنسان الحرّيَّة بلا قيود فعليه أن يقبل التنازل عن عقله كي يستطيع في دائرة الممكن أن يفعل ما يشاء متى ما يريد، ولكنّه نهاية

سيعرف أنَّ للحرّيَّة ثمنًا، وهكذا إذا أرد الاثنين معًا فعليه أن يقبل بحياة المساجين الأحرار التي يشار إليها بالقضيَّة:

(كل أ ليست أ)

فنحن بني آدم لولا العقل وما نفكّر فيه ما عرفنا المرغوب والممنوع، ولا المحلّل والمجرّم، ولولا العقل والفكرة ما استعملنا كلمتي: (قف وسر)، ولا كلمتي: (لا، ونعم)، ومن ثمّ فإنْ لم يقيّد الإنسان نفسه عقلًا، سيجد نفسه مقيّدًا من قِبل الغير، بفكرة القيد التي أنتجها عقله، ومع أنَّ السّجن هو السّجن فإنَّ تدبّرًا إن وَضع الإنسان نفسه في قيد عقله فهو على الأقل أصبح يمتلك الإرادة، ولكن إن وُضع القيد في يديه كرهًا؛ فهل يمكن له أن يكون على شيء من الإرادة؟

وإذا سلّمنا أنَّ العقل الإنساني هو الذي يقيّد نفسه، ألا نسلّم بأنَّه قادر على فكّ قيده عن نفسه ارتقاءً؟

أقول: لا شكّ إنَّه سيكون قادرًا إذا قبل التوقّف عند حدوده، ولا يتمدّد على حساب حدود الغير، ولكن إن تمدّد؛ فسيجد نفسه سجين تلك الفكرة التي أنتجها قيدًا لا أملًا.

ولمتسائل أن يتساءل:

هل الأبوة والأمومة قيدان أم أنَّهما منبعًا ولادة الإرادة الحرّة؟

الأبوّة والأمومة منبعا إشباع العاطفة، وهما المأمولان في الذّاكرة الإنسانيَّة، وهما مكمن ولادة المحبَّة، وهما الحضن الدّافئ للأبناء، وهما القيد الذي لا ينبغي كسره؛

قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلا كَرِيما وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرا}[8].

ولهذا وجب طرح السُّؤال: هل (لا) تعد قيدًا أم أنَّها مجرّد أداة ناهية وغير ملزمة؟

أقول:

لقد ورد معنى (لا) في الآية السّابقة نهيًا قاطعًا: (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا) أي: لا حرّيَّة لك في أن تقول لوالديك (أفٍّ)، وهذا يعني أنَّها قيد، وفوق ذلك فهي تعني: ليس لك إلَّا القبول. وليس القبول فقط، بل يجب أن تقول لهما قولا كريمًا (وَقُلْ لَهُمَا قَوْلا كَرِيما) بمعني: لا مجال للرّفض إلَّا القبول، وفوق التقبُّل أن تقول لهما: (قَوْلا كَرِيمًا)، وفوق القول الكريم أن تخفض لهما جناح الذُّل من الرَّحمةِ: (وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ)، وفوق ذلك أيضًا أن تسأل الله أن يرحمهما: (وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرا).

إذن: تعد (لا) قيدًا يستوجب الاحترام والتقدير بعد الأخذ بما نهت عنه، ومع ذلك لا يعد القبول مطلقًا، وفقًا لكلّ قاعدة استثناء، والاستثناء جاء في قوله: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنيا مَعْرُوفا}[9].

[8] الإسراء 23، 24.

[9] لقمان 15.

ولأنَ (لا) ناهية وقاطعة؛ فهي ناهية لما تنهى عنه استثناء، وبمراجعة النّهي السّابق نلاحظ أنَّها تنهى عن معصية الوالدين، وتوجب طاعتهما، وفي هذه الآية نلاحظ أنَّها تنهى عن طاعتهما في معصية أمر الله التَّافذ: (وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا) ومع أنَّه لا يجب طاعتهما في أمر المعصية، فإنَّه يجب مصاحبتهما في الدُّنيا معروفًا حتى وإن ارتكبا فعل المعصية: (وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنيا مَعْرُوفا).

ومن ثمّ فالتساؤل: هل (لا) تعد قيدًا، أم أنَّها مجرّد أداة ناهية وغير ملزمة؟

أقول:

إنَ (لا) الملزمة غير ملزمة، أي: إنَ (لا) التي يكون أمر نهيها ملزمًا، فأمر نهيها لا يكون إلَّا استثناء، بمعنى: لو لاحظنا أمر الأبوة والأمومة للاحظنا أنَ القاعدة هي: طاعة الوالدين، والاستثناء هو عدم طاعتهما، ولأنَ لكلّ قاعدة ما شذ عنها، فمن لا يطيع والديه يعد قدّ خرج عن القواعد القيميَّة المقدّرة، وبالتّالي يجب أن ينهى عن الخروج عنها، إلَّا استثناءً بعلل المخالفات المنحرف أصحابها.

ولهذا؛ فدائمًا (لا) النَّاهية لا تأتي إلَّا استثناء، ولأنَّها لا تكون إلَّا استثناءً فهي قيد لا يجوز إلَّا استثناءً؛ ومن هنا تعد (لا) قيدًا لا يكون إلَّا في وجوبه (وفقًا للقاعدة)، وفي المقابل من يستخدم (لا) في غير وجوبها، ينبغي أن تُكسّر حتى لا تكون عائقًا بين الإنسان وما يمكّنه من بلوغ الآمال التي تحقّق له الرّفعة والمكانة.

أمَّا التساؤل: هل الدّين قيد أم إنَّه منبع قيم ممارسة الحرّيَّة؟

أقول:

الدّين هو المغذي للقلب (طمأنة وسكينة)، والمغذّي للرّوح (أخذًا وتجنّبًا ونهيًا)، والمغذّي للذَّاكرة بما يجب أن تكون عليه (تذكّرًا وتدبّرًا وتفكّرًا)، وهو ما لم يخالف الطَّبيعة الخَلقيّة لبني الإنسان، من أجل تطابق العلاقة بين الأمل والدَّوافع الممكّنة من بلوغه؛ ذلك لأنَّ قواعد الدّين كلّ شيء مشاع لك أو لغيرك (للإنسان أو لغيره من المخلوقات الأخرى)؛ ولهذا فما يحرّم على الإنسان لا يحرّم على غيره من المخلوقات سواء المحللة له أو المحرّمة عليه، ولا قيود على المحلل، بل القيود على المحرّم والمجرّم، فآدم عليه السّلام وزوجه اللذان خُلقا في الجنَّة، خُلق معهما كلّ شيء من أجلهما مشاعًا، أي: كلّ شيء نافعٍ لهما لا قيود عليه، ولكن القيود التّاهية جاءت على كلّ ما يضر أو يترك ندما وألما، أو أنَّه موضوع للاختبار والامتحان الذي لا يتم تجاوزه نجاحًا إلَّا بالصَّبر طاعة؛ وهذا ما لم يعرفه آدم وزوجه: {وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}[10] ، ومن هنا: جاءت الاستثناءات جنبًا إلى جنبٍ مع كلّ قاعدة.

وعليه فإنَّ المشاعيَّة هي القاعدة، أمَّا النّهي فهو الاستثناء؛ ولذلك فالمؤمنون يأملون بلوغ مجمع النِّعيم المشاع (الجنَّة)، أمَّا الاستثناء فلا يكون إلَّا بعلل الشذوذ عن القاعدة.

---

[10] البقرة 35.

ولأجل ترسيخ القيم الحميدة، والفضائل الخيّرة وتبيان ما يجب وما لا يجب جاءت القوانين؛ لتنظيم العلاقات (أقصد بالقوانين تلك القوانين المشاعة)، التي ترسّخ قيمة الإنسان؛ حيث لا يُحرّم عليه شيء هو حقّ له، ولا ينهى عن أداء واجب ينبغي أن يؤدِّيه، ولا عن مسئوليَّة تُحمل يجب أن يحملها ويتحمّل ما يترتّب على حملها من أعباء.

ومع أنَّ الإنسان خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه لم يُخلق على الكمال؛ إذ لا كمال إلَّا للخالق؛ ولهذا فمن يرى نفسه على الكمال فقد خرج عن القاعدة وأصبح استثناءً، وهنا يجب أن ينهى بأمرٍ وقانونٍ يجعله يتمددّ بحرّيَّة إلى النِّهاية التي لا يكون فيها تمدّده على حساب تمدّد الآخرين.

والسُّؤال: هل القانون قيد أم أنَّه نصوص لفكّها؟

أقول:

فلسفة القانون تمنح الإنسان فسحة التمدّد بحرّيَّة حتى حدود الآخرين بلا تجاوز، أي إنَّ التمدّد هو المشاعيَّة، وفي المقابل الانكماش أو التجاوز هو الاستثناء، بمعنى لا ينبغي لك أن تتمدّد إلَّا في مجالك الواسع، ولا ينبغي لك أن تتمدّد على حساب تمدّد الغير؛ والهدف من ذلك هو: وجوب التمدّد وهذه قاعدة، أمَّا الانكفاء فهو الاستثناء بعينه.

ولأنَّ المجتمع البشري متضاعف الأعداد، ومتنوّع الرّغبات، وحاجاته متطوّرة، وفي المقابل مشبعاتها بين

كثرة وندرة وانعدام فهو بين هذا وذاك أصبح مضطرًا لتنظيم علاقاته، وضبط أعماله وأفعاله وسلوكيَّاته، وتنظيم حياته؛ ممّا دعاه إلى سنّ القوانين الضَّابطة لذلك، ولكن أيَّة قوانين؟ هل هي فاتحة الآفاق لممارسة الحرّيَّة، أم إنَّها المقيّدة لمن يأمل ذلك؟

القانون وفقًا للقاعدة الطبيعيَّة لا تقييد فيه؛ ذلك لأنَّه محقّق التوازن والاعتدال؛ ولذا فمن لا يتوافق مع قوانين الخالق (القوانين الطبيعيَّة) يجد نفسه منحرفًا عن غير اعتدال، ثمّ منعوتًا بالشّذوذ عمّا يجب من قبل المتوازنين درايةً وقانونًا؛ ولهذا فالقوانين الطّبيعيَّة متلائمة مع طبيعة المخلوقات؛ كونها خالقة التوازن والاعتدال، أمَّا القوانين الوضعيَّة فهي بين توافق عن إرادة وتكيّف لا يكون إلَّا بقبول تقديم المزيد من التنازلات.

ولذلك ووفقًا للقانون الطَّبيعي فإنَّ كلمة (قف) تعني الاعتراف بوجودك وتقديرك واعتبارك، ولكن إن لم تقف عند حدّك الذي هو حقّ لك؛ فستواجهك الصّدمة التي قد لا تكون متوقَّعة من قِبلك، وهنا تكمن علّة التمدّد على حساب تمدّد الآخرين، فكلمة (قف) تدلّ على الإنذار ليس إلَّا، ممّا يجعل الوقوف هناك عند نقطتها بلا مظلمة.

ومن خلال معرفتنا العامَّة يقال: إنَّ الإنسان خطّاء، ولكن بالمعرفة العلميَّة من الذي سيخطئ؟ هل هو الإنسان العاقل، أم غير العاقل؟

أقول:

العاقل هو المعرّض للأخطاء، أمَّا غير العاقل فخطؤه أمر طبيعي. وبما أنَّ العاقل هو الذي يخطئ، إذن فالذي يفكّر قد لا يخطئ، بمعنى لو فكّر العاقل في النتائج المترتّبة على الموضوع الذي يفكّر فيه، قد لا يخطئ، أمَّا غير العاقل فهو (الحرّ) الذي لا يعرف الخطأ، وحتى إذا أُتهم به نال البراءة من رؤوس العدالة.

ومن ثمّ متى ما انحرف العاقل عن قيد عقله تحرّر من اتجاهه، وإلَّا هل هناك من يقول: نحن لم نخلق بعقل، ولم نسجن به؟

أقول:

نحن الذين خلقنا بعقلٍ، ونحن الذين سُجنَّا بهِ.

إذن: فالسّجن ليس الجدران والقضبان، بل العقل الذي يفكّر؛ ولهذا كلّ من لا يفكّر حرّ بطبعه.

والسُّؤال:

هل العقل قيد (سجن) في حدّ ذاته أم إنَّ القيود خارجة عنه؟

إذا أجبنا بأنَّ القيود خارجة عنه قد نسأل: لو كان الإنسان غير عاقل (وفقًا لدائرة الممكن)؛ فهل يمكن أن يفكّر في وضع قيود عليه؟ فإذا كانت الإجابة بلا، إذن الإنسان العاقل هو الذي قيّد نفسه، وهو الذي نقل لنا ما في ذهنه من موانع إلى صور وأشكال مادّيَّة سُميت (السّجون) المحاطة بالجدران والقضبان الحديديَّة والحرَّاس المزودين بالهراوات والأسلحة الحديثة.

ولأنَّ الإنسان العاقل قد يتهرّب من ضميره كضابط عام؛ وضع لنفسه قانونًا لضبطه، وشرطيًّا ليقبض عليه متى ما خالف ذلك، ولكن بعد تنفيذ القانون عليه، أحس الإنسان الذي أوجد القانون أنَّه قد وضع على نفسه ضميرًا ورقيبًا خارجًا عنه وقيدًا عليه، فبدأ يفكّر في كيفيَّة خِداعه والتهرّب منه، ممّا جعل العلاقة بين الشّرطة والمواطن الذي تنازل عن ضميره علاقة عدم ثقة ومطاردة؛ ولهذا لم يؤت الإنسان من العلم إلَّا قليلًا، ولو أُوتى علمًا واسعًا لعرف أنَّ التنازل عن الضّمير هو تنازل عن العقل والحرّيَّة؛ ولذلك لم يتطوّر إلَّا بالقليل؛ فالإنسان الذي وُلد كغيره من الكائنات الأخرى يصرخ متى يشاء ويصمت متى يشاء، وُلد حرًّا، ومع أنَّه حرٌّ فإنَّه لا يستشعر الحرّيَّة؛ لكونه لم يدرك معناها بعد؛ حيث عدم نضج العقل الممكّن من معرفة الحرّيَّة وكيفيَّة ممارستها قانونًا طبيعيًّا أو وضعيًّا.

وهكذا هي الحياة لا تكون إلَّا على القوانين، ولأنَّ الحياة مؤسّسة على القانون فلا يمكن أن يكون القانون قيدًا إلَّا إذا كان القانون استثناءً.

وبناء على ذلك فللمتسائل أن يتساءل: هل الزّواج الطَّبيعي هو قيد، أم أنَّه دليل شاهد على المشاركة محبَّةً ومودةً؟

أقول:

الزَّواج قيمة حميدة تحقّق الرّضا متى ما كان الزّواج غير متخالف مع قوانين الحياة الطَّبيعيَّة، وفي المقابل يفقد الزّواج قيمته الحميدة إذا حاد عنها، وأصبح على حسابها استثناء.

وعليه: فالتساؤلات التي تحمل في مضمونها قيدًا لا تكون قيودًا إلَّا في حالات الاستثناء، وهنا لا تكمن العلّة في القوانين الطَّبيعيَّة، بل تكمن العلّة فيمن لا تكون اختياراته وفقًا للقواعد الطَّبيعيَّة التي تأسّست عليها طبيعة الخلائق؛ وهذه النتيجة تحتوي كلّ التساؤلات الآتية:

ـ هل الدِّين قيد على الحرّيَّة، أم داعم لها؟

ـ هل القانون قيد على حرّيَّة العقل أم لا؟

ـ هل الأمومة والأبوة والمجتمع قيود على حرّيَّة العقل أم لا؟

ـ هل كلمة **لا** قيد على الحرّيَّة أم لا؟

ـ هل السّجون قيد من أجل الحرّيَّة أم قيد عليها؟

ـ هل الحكومة قيد على المحكومين أم لا؟

ـ وهل يمكن أن تتحقّق الحرّيَّة إذا اعتبرنا هذه قيود؟

وبناء على هذه الأسئلة، أتساءل:

متى ستتحرّر عقول النَّاس من التفكير فيما يُقلق وينتج ألما؟

لا إجابة إلَّا بالعقل الذي يفكّر ويتذكّر ويميّز بين الحقّ والباطل الذي لولاه ما عرفنا المرغوب والممنوع، ولولاه ما استعملنا كلمتي (قف، وسر)، ولا كلمتي (لا، ونعم) فهذه الكلمات هي التي تنتج قولنا: (نعم) لما نريد، (ولا) لما لا نريد.

وعليه: ينبغي للإنسان أن يكون في عقله لكي يكون حرًّا، وإذا خرج منه سيوضع فيه مِن قِبل الآخرين بالقوَّة، وعليه أن يفكّر، ولكن إذا كان العقل سجنًا فهل سيحقّق تطوّرًا؟

والسّجن منه الانفرادي والجماعي والاجتماعي؛ ولهذا في الدّول التي تهدف إلى التقدُّم لا يسجن المجتمع، بل يسجن الأفراد والجماعات الذين يحاولون إعاقة حركة المجتمع إلى التطوّر، أمَّا في الدّول المتخلّفة فيسجن المجتمع بكامله تحت الأوامر والنَّواهي التي تعيق حركته إلى التطوّر، ممّا يجعل دور المدرَسة ليست بمدرسة، ودور المدرس ليس بالمدرس، ودور الواعظ ليس بواعظ، وخطيب الجمعة ليس بالخطيب، وشيخ القبيلة ليس بشيخ، ورئيس الحكومة ليس بالرّئيس.

ومن هنا فالعقل الذي يحقّق التطوّر هو العقل العام، والعقل العام هو عقل المنافع الفرديَّة والجماعيَّة والمجتمعيَّة، أمَّا العقل الذي لا يفكّر في محيطه؛ فهو في دائرة الاستثناء؛ ولهذا لا يحقّق التطوّر.

وإذا عُدنا مرّةً ثانيةً للإجابة عن السُّؤال السّابق كيف يكون العقل سجنًا ويحقّق التطوّر؟

أقول:

إذا سلمنا أنَّ العقل هو الذي قيَّد نفسه، ألا نسلّم بأنَّه قادر على فكِّ قيده؟ وفي كلّ الأحوال إذا كانت الإجابة بنعم، هل يمكن أن يعيش الإنسان الحرّيَّة ويمارسها بكامل عقله وفي الوقت نفسه يكون على الإرادة والأخلاق؟

في اعتقادنا الإنسان بطبعه يغضب ويطرب، ويقبل ويرفض، وله حدود وفسحة امتداد، ومع ذلك قد يصعب عليه الالتزام والتوقّف عند الحدود، ولأنَّه من الصّعب الالتزام بها، إذن فَمِنَ الصَّعب ألَّا يسجن؛ ومن ثمّ يتأكَّد لنا بأنَّ العقل سجن وعلينا احترامه لكيلا نسجن.

ومع ذلك لا يمكن أن يضع الإنسان القيد في عنقه بإرادة إلَّا في حالتين:

- حالة الانتحار.

- حالة فقدان العقل.

وفي كلتا الحالتين هو في حاجة لمن يكسر القيد عنه؛ حتى ولو كان بقيدٍ آخر.

ولذلك ينبغي للقيود المكبّلة لممارسة الحرّيَّة أن تُكسر؛ كونها شذوذًا عن القاعدة الخَلقيَّة التي خُلق الإنسان عليها في أحسن تقويم. أي ينبغي كسر القيد الذي وضعه الحاكم الظّالم في رقاب المحكومين؛ ولهذا فالمساءلة ضرورة موضوعيَّة تعيد المنحرفين عن انحرافاتهم سواء أكانوا حكّامًا أم محكومين، ولكن نلاحظ في الوقت الذي فيه يخضع طرف إلى هذا الإجراء من أجل ممارسة الدِّيمقراطيَّة في الوقت ذاته يخرج طرف آخر عن مراقبتها وهنا تكمن العلل.

والمعادلة التي قد تحتاج إلى ضبط وإلَّا سيختل التنظيم الاجتماعي هي أنَّ الشُّعوب في زمن ما قبل العولمة كانت غير قادرة على السّيطرة على الحاكم، ومن ثمَّ كان الترحيب حارًّا من قبل شعوب الدّول النَّامية

بتنظيرات العولمة التي يعرفون أنَّها سَتُمكِّنهم من كسر القيد بالقيد، أمَّا في الزَّمن الذي ستزدهر فيه العولمة فستكون المعضلة كيف يمكن للحاكم أن يضبط الشّعب من الانفلات بعد أن فُكت قيوده التي من الصَّعب أن يقبل بالعودة إليها؛ ولذا قد تتدخل قوَّة خارجيَّة من جديد تحت مبررات من أجل ضبط النِّظام واستقرار الأمن، وهذا ما سيكون متوقَّعا إذا انتصر اليمين في أوروبا، مع أنَّ رأينا يتوقّع غير ذلك، أتوقّع أنَّ اليمين لن يتبوأ السُّلطان وكأنَّه سيد الميدان وحده، ولذا فأنَّ الأمر في أوطان العالم الثَّالث يحتاج إلى مزيدٍ من الوقت، مع إتاحة الفرصة لمزيدٍ من الآلام حتى وإن تظاهر البعض بتقليلها.

وفوق ذلك أقول: إنَّ العمل على شعوب ذلك العالم الذي كان تحت مظلة ما يسمى بالعالم الثَّالث أصبح ميسّرًا شريطة أن يقبلوا بإسقاط الأنظمة مقابل القبول بسيادة الفوضى ومزيدًا من الأوجاع؛ فالسُّودان على سبيل المثال: إذا لم يَحسم أحد الأطراف الأمر فيها في الزّمن غير المتوقَّع فإنَّ أمرها سيطول والمآسي قد تأخذ أريحيَّتها بين الشّعب السّوداني.

وعليه: إذا أريد للعولمة تجديدًا وسوقًا واسعًا فلا بدَّ أن تعاد قراءة المتغيرات الدّولية؛ فعلى سبيل المثال: الصّين اليوم ليست بالصّين يوم الأمس، والشّرق الأوسط لن يبقى ذا أهميَّة للولايات المتحدة الأمريكيَّة كما كان يوم الأمس؛ فذلك الصِّراع والصّدام الذي دارت رحاه عشرات السّنين بين العرب والإسرائيليين لن يبقى على ما كان عليه، وبخاصّة بعد الاعترافات والمشاركات في رؤوس الأموال

والأسواق المشتركة والاحتفالات البينيَّة حتى وإن كانت تحت الطَّاولات؛ ولهذا في دائرة المتوقَّع لا مفرَّ مِن أن يحكم القضاة بأنَ بيت المقدس عاصمة للأديان الثَّلاثة، أمَّا في دائرة غير المتوقَّع فإنَ السِّيادة ستكون لمآذن المساجد.

أمَّا تلك المواجهات والنِّزاعات التي كانت في الشّرق الأوسط ستنقل حيويَّتُها إلى أسواق المحيط الهندي وشرق القارة الأسيويَّة، وقد تصل إلى قارة أستراليا؛ فتلك الأراضي هي التي ستكون السّوق الكبير لبيع الأسلحة وإجراء المناورات وزرع المتفجّرات والتفخيخ، ثمّ بلوغ المواجهات واحتجاز الرّهائن واستبدال الأسرى وفقًا للمفاوضات ذات الزَّمن الطَّويل.

ومن هنا سيتم التنظير لعولمة تؤسّس سيادها على كفتي اعتدال الميزان، أي على الحرّيَّة الشَّخصيَّة وفقًا للقيم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة في مقابل حرّيَّة السّوق؛ وإذا لم يؤخذ ذلك في الاعتبار، فإنَ نظام السّوق سيكون قيدًا بالضّرورة؛ ولذا فإنْ لم يحسم هذا الأمر سيكون الصّدام بين من يحاول أملاء شروطه والرّافضين لها؛ وهذه قد تنجم صراعات محتملة منها:

ـ الصّراع بين المواطنين كأفراد عندما يحسّ كلّ منهم أنَ الآخر هو قيد على حرّيَّة ممارسته للدِّيمقراطيَّة.

ـ الصّراع بين المواطن الفرد والحاكم عندما يشعر المواطن بأنَ الحاكم يُشكل قيدًا عليه وعلى ممارسته الحرّيَّة، أو عندما يشعر الحاكم أنَ المواطن غير مكتفٍ بما أعطى له من هامش للامتداد.

ـ الصّراع بين المواطن الفرد وأداة الحكم، عندما يحس الموطن أنَ الأداة الحاكمة تحتكر السُلطة ولا تسمح له بأن يمارس حقّه مشاركة.

ـ صراع المواطن كفرد مع الدَّستور والقوانين والنُّظم عندما تصاغ بغير إرادة.

ـ صراع الدّول على ضرورة إعادة التوازن الذي فُقد بعد أن طُويت صفحة الاتحاد السُوفييتي وانفراد الولايات المتحدة الأمريكيَّة بالسِّيادة على مسرح السِّياسة الدّوليَّة والتغوّل على الغير، ولكن حَلقة هذا الانفراد أصبحت تضيق بعد إعادة الحيويَّة الرُّوسيَّة للسياسة الدّولَّية، والتي اتاحة الفرصة للصّين (الدُّب الصَّامت) بأن ينهض ويكشِّر عن أنيابه بلا تردّد؛ لا للتفرّد بالسِّياسة الدَّولية، ولا للتفرّد لاحتكار السُّوق، ولا للغطرسة الأمريكيَّة. هذا الأمر ليس له إلَّا أحد الاحتمالين:

الاحتمال الأوَّل: التَّماس عند خطوط المواجهة الحمراء، يصحبه تدخُّل سريع بغاية أن يتوقَّف كلًّا عند النُّقطة التي هو عندها والأخذ بالمفاوضات التي لا شكَّ سيكون السَّقف فيها بدايةً مرتفعًا، ونهاية للضّرورة لا بدَّ من حلٍّ. أو أنْ يحدث ما لم يحمد عقباه على الكرة الأرضيَّة بأسرها.

ـ الاحتمال الثَّاني: حدوث لُحمة بين كتلتين رئيستين: الكتلة الأولى الصِّين وروسيا من جهة، في مواجهة الكتلة الثانيَّة: الكتلة الأمريكيَّة الأوروبيَّة برئاسة بريطانيَّة من جهة أخرى، يحدث من بينهم التفاوض على مجالات الامتداد والهوامش المسموح بها لكلِّ كتلة من

الكتلتين (الصّين روسيا - وأمريكا أوروبا بزعامة بريطانيا). وهذه بلا شكَّ لن تكون إلَّا بقبول إعادة تخريط خريطة العالم السّياسيَّة والاقتصاديَّة، ولا تكون إلَّا على حِساب ما كان يسمى بالعالم الثَّالث، وبخاصّة إنَّ الصَّين لن تعدّ من تثليثهِ.

ومع أنَّ ما يجري الآن من مواجهات بين روسيا وأوكرانيا يراه البعض أو يظنَّه وكأنَّ الأمر بين كفَّتي الميزان متعادلًا؛ فأقول: أوكرانيا بالنِّسبة إلى روسيا فأر يلعب مع قطٍّ قوي دون أن يعرف أنَّ لعبه هذا لا يخرج عن اللعب بين المخالب ولُعاب الأنياب يسيل، ولكن مع إعطاء هذه الفرصة للفأر أن يلعب بين المخالب ظنَّ الفأر أنَّه سيأكل القط لا محالة.

وإذا تساءل البعض ولمن المكان الذي يلعب الفأر فيه بين المخالب؟ أقول: إنَّه ذلك المكان الذي استقطعه القط من ذلك الملعب الذي كان في حوزة الفأر الذي أصبح بين المخالب.

ولهذا أصبحت الأرض التي كان يلعب الفأر عليها في خبر كان بعد أن أصبح الفأر الضحيَّة.

ومع أنَّ الفأر أصبح على ما هو عليه وصفًا فليس له في دائرة المتوقَّع إلَّا القبول بإيقاف إطلاق النَّار، ومتى ما قَبِلَ بذلك فليس له إلَّا القبول بترسم الحدود، وإذا قبل بذلك فعليه أن يعرف وجوبيَّة الطَّاعة التي كما تُحرِّم دخول الأسلحة الهجوميَّة، تحرِّم أيضًا الدّخول في حلف يجعل مخالب القط بين المخالب. وهكذا سيكون حال

تايوان مع الصّين متى ما لعبت ستجد نفسها بين المخالب.

وبناءً على هذه النِّقاط المسبّبة للصّدام آجلًا أم عاجلًا لا بدّ من إعادة التنظير للعولمة، بهدف تحرير المواطن بناء على ضمانات حقوق الإنسان برؤيةٍ جديدةٍ؛ كون الإنسان من حقِّه أن يكون حرًّا، ويمارس الدّيمقراطيَّة بإرادة؛ وهذه تستوجب فكّ القيد عنه بإرادة، وإن لم يُفك بها يجب أن يُكسر بالقوَّة؛ وكلمة يجب أن يُكسر بالقوَّة تعني فيما تعني: وضع القيد في عنق من لا يودّ فكه بإرادة، ومن هنا تتولّد الصِّراعات التي منها:

ـ صراع الضّمير العام مع الأنا:

عندما تفلُت الأنا من ضوابط الذّات التي تشكّل قيدًا عليها، يتدخَّل الضّمير العام كحكم بينهما بالنّواهي والضّوابط التي استمدّها من الفضائل الخيرة والقيم الحميدة، وهذه الضّوابط بالنّسبة إلى الأنا تُعد هي الأخرى قيودًا إن لم تفكّ فلا بدَّ أن يتمّ التحايل عليها وعدم الالتزام بها.

ـ صراع الضّمير العام مع الذّات الجماعيَّة:

الذَّات الضَّابطة للأنا في كثير من الأوقات هي في حالة صدام معها؛ ولأنَّها ذات جماعيَّة بشريَّة فهي الأخرى تحيد في بعض الأحيان عن ضوابط الضّمير العام، الذي تعدّه الذّات سندًا لها عندما تكون في حالة صدام مع الأنا، وفي ذات الوقت تعدّه قيدًا عليها عندما تحاول الانفلات

والانحراف؛ وذلك بمتابعته لها في كلّ أمرٍ، فكلّما قرّرت الانفلات منه يحدث الصِّدام معها.

وإذا تساءل البعض: متى يحدث الصِّدام بين الضّمير العام للمجتمع والضّمير العالمي (ضمير حقوق الإنسان والحيوان)؟

تجيب تلك العولمة عن ذلك بالنِّقاط التَّالية:

أ ـ عندما لا يستوعب الأنا الآخر.

ب ـ عندما لا تمارس الدّيمقراطيَّة بإرادة.

ج ـ عندما لا تفتح البلدان كميادين ليمارس السّوق نشاطه فيها بحرّيَّة.

د ـ عندما لا تكون الأديان والأعراف قيودًا على من لا يُشرِّعون بها.

هـ ـ عندما لا يتمّ الحفاظ على البيئة.

ع ـ عندما يحاول البعض صمّ آذانه عمَّا تقوله المنظّمات الدّوليَّة، ومنظمة الأمم المتحدة التي ستُدخل تعديلات عليها وعلى قوانينها عندما يقف كلًّا عند حدَّ في أثناء التماس أو التفاوض قبل حدوثه بين الكتل التي أشرنا إليها سابقًا.

و ـ عندما يحاول البعض الامتناع عن ارتداء القميص القيد للعولمة، وهو الذي سيتم تفصيله بعد التنظير للعولمة الصَّاعدة بين الكتل التي ستكون على التفاوض من بعد التَّماس.

عليه: سيكون التدخُّل مباحًا ومتاحًا متى ما يتراء للذّات العالميَّة أن تتدخل في الشّؤون الدّاخليَّة للبلدان والدّول؛ ولهذا كسر القيد بالقيد لا فرق فيه بين أن يكون حديديًّا أو ذهبيًّا، إلَّا أنَّ القيد الحديدي القديم الذي في كثير من الأحيان يتعرّض إلى الصّدأ سيتمّ استبداله بالقيد الذّهبي الجديد الذي لا يصدأ؛ وذلك بعد طلائه من قِبل الكتل الجديدة الرَّاسمة للسِّياسة الدَّولية بعد حسمها للصِّراع المباشر[11].

العقل صبرًا تجاوز دونيَّة:

الصَّبر أمرًا لا يُطلب البقاء عليه إلَّا بغاية إنجاز عملًا عظيمًا؛ كون أصحابه لا يستسلمون، ولا يركنون للكسل والدّعة؛ ذلك لأنَّهم أهل طموح وغايات ومأمولات يسعون بلوغها ونيها: {رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صبرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}[12]، ومع أنَّ الصَّابرين هم الصَّمدون عملًا متحدّيًا للصِّعاب فإنَّ المؤمنين منهم لا يقدمون على عملٍ عظيم إلَّا وهم واثقون لن يكون لهم النَّصر إلَّا من عند الله: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ}[13]؛ ولهذا فالصَّبر مع التحدّي يتجاوز بأصحابه الدُّونيَّة؛ ذلك أنَّ الدُّونيَّة منزلة سُفليَّة لا تليق بأهل العلم ولا أهل المكانة والرّفعة، بل ولا تليق بمن خُلق في أحسن تقويم، ومن أراد أن تكون حياته على الخُلق الرّفيعة وعيًا وتدبّرًا فعليَّه بكلّ ما يُمكّن من إحداث النُّقلة ارتقاءً إلى ما هو مأمول، وفي مقابل ذلك إن لم يحسن الإنسان إدارة شؤونه فليس

---

[11] المصدر السابق، ص 85.

[12] البقرة 250.

[13] آل عمران 126.

له إلَّا الانحدار، فآدم عليه السَّلام الذي خُلق في العليّة عندما أخفق في إدارة نفسه انحدر إلى سُفليَّة غير متوقَّعة، وهناك في دائرة غير المتوقَّع واجهته المفاجأة؛ بعد ما انحدر معصية مع انحدار شهوته ورغبته؛ التي جعلته على الهبوط إلى الحياة الدُّنيا بعد أن كان في السّماء قمّة.

ولمتسائل أن يتساءل:

هل خُلق آدم على الارتقاء خَلقًا، أم أنَّه جُعل عليه جعلًا؟

أقول:

لو جُعل آدم على الارتقاء جعلًا، لكان الارتقاء مستقلًّا عنه وسابقًا عليه؛ ولأنَّه لا سابق على آدم ارتقاءً فهو المخلوق عليه خَلقًا؛ قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[14]، ولأنَّه خُلق على الارتقاء خَلقًا، قال (في أحسن تقويم)، وفي المقابل لو كان آدم قد جُعل على الارتقاءِ جعلًا لقال تعالى: (على أحسن تقويم) وهو المأمول غير المتحقّق في ذات آدم خلقًا، وهذا ما يخالف دلالة الحُسن التي خُلق منها آدم عليه الصَّلاة والسَّلام.

ومع أنَّ آدم قد خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه انحدر إرادة ومعصية، فكان في سُفليَّة ودونيَّة أمام خَالقه: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}[15]؛ ومع ذلك استغفر آدم ربَّه تحدٍّ لما أوقعه في ارتكاب الخطيئة فتاب الله عليه، ومن هنا

---

[14] التين 4.

[15] التين 5.

فتح الله باب التوبة لعباده الذين آمنوا وعملوا الصّالحات: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}[16].

ومع أنَ آدم قد خُلق في أحسن تقويم، فإنَّه قد خسر ذلك الارتقاء بمعصية منه، ممّا جعله استغفارًا يأمل الارتقاء عمَّا انحدر فيه من سُفليَّة؛ فغفر الله له وتاب عليه بغاية الارتقاء إلى تلك المقامات العظام، ولكن الأمر لا يعد هيّنًا؛ حيث لا عودة إلَاّ بالعمل الصّالح الممكّن من الارتقاء إلى تلك القمّة التي أصبحت أملَ آدم بعد أن كانت بين يديه.

ولأنَ العمل ارتقاء يؤدِّي إلى ما يُنقذ بني آدم من الألم، كما يؤدِّي بهم إلى ما يُغرقهم فيه فهم بين هذا وذاك بين ارتقاء فيه العمل يُتقن، ودونيَّة بها يُهمل وينحرف إلى ما لا يجب؛ ولذلك كان الصّدق ارتقاءً في مواجهة الكذب انحدارًا، وكان العدل ارتقاءً في مواجهة الظّلم انحدارًا، وهكذا كان الحقّ في مواجهة الباطل، والحرّيَّة في مواجهة الاستعباد، والدِّيمقراطيَّة في مواجهة الدّكتاتوريَّة، والاستيعاب في مواجهة الهيمنة والإقصاء، وبين هذا وذاك يجب تحدّي الصِّعاب بما يُمكّن من الارتقاء قمّة.

ولأنَ بني آدم بين ارتقاء ودونيَّة فهم بينهما بين ما يرسّخ قيمة الإنسان رفعة ونهضة ومكانة، وما يؤدِّي إلى التخلّف والفاقة وتقليل الشَّأن.

ولذلك فالعمل الصّالح ارتقاءً لا يكون إلَّا عملًا منتجًا ومتقنًا ومبدعًا ومرسّخًا لقيمة الإنسان، وفي المقابل

العمل الفاسد والرّغبة الفاسدة لا يكونان إلَّا على حساب القيم الحميدة، وعلى حساب مصالح الآخرين ورغباتهم ومصائرهم وما يشبع حاجاتهم المتطوّرة والمتنوّعة؛ ومن ثمّ فالعفّة والأمانة والنّزاهة وتحمّل أعباء المسئوليّة ارتقاءً ستظل قيمًا في مواجهة تلك القيم المؤدّية بأصحابها إلى السُّفليَّة والدّونيَّة التي تتمركز على الأنا.

ولهذا فالارتقاء لا يمكن أن يبلغه بنو آدم إلَّا عدلًا وعملًا وعفوًا وصفحًا، وكذلك الانحدار لا يمكن أن يبلغوه إلَّا ظلمًا وإهمالًا وتشدّدًا وتطرّفًا، ففي دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع، فمن شاء الارتقاء عمل من أجله ارتقاء وتحدّى الصِّعاب، ومن شاء الانحدار عمل من أجله سُفليَّة ودونيَّة.

وعليه:

فآدم بعد أن خسر تلك المكانة القمّة، عمل على الارتقاء إليها ثانيةً، ولكن ظلَّ الارتقاء إلى تلك القمّة من قِبل بني آدم أملًا وعملًا، فمن يعمل صالحًا يقترب منها، ومن يعمل باطلًا يبتعد عنها؛ فالإنسان الذي خُلق على الارتقاء بدايةً، ثمّ انحدر عنه رغبة وشهوة، أصبح ثانيةً يسعى إلى العودة إلى القمّة، وهو يأمل أن تُرتق الأرض بالسّماء حتى يرى بأمّ عينه ما يأمله ارتقاءً ورفعةً ونهضةً.

فبنو آدم خُلقوا على الاختلاف وسيظلون به مختلفين، حتى أهل الوطن الواحد والدّين الواحد واللغة والثَّقافة الواحدة هم مختلفون قدرات ومواهب واستعدادات وميول واتجاهات: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ

وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[16]؛ ولهذا فهم مختلفون بصمة، ولا تناسخ بينهم فيما خُلقوا عليه خَلقًا، ولكن بينهم تماثل فيما هم عليه من معرفة وعلم وحضارة واقتصاد وسياسة، وفنون وآداب؛ ومع ذلك فالاختلاف بينهم لا يلغيه التماثل والتشابه، بل التماثل والتشابه بين بني آدم يؤكّد وجود الاختلاف بلا لبس ولا غموض.

ولأنَّه الاختلاف؛ فهو المحفّز على البقاء تنوّعًا، وهو المحفّز على التغيير الممكّن من التّعاون والنّهوض ارتقاءً؛ فبنو آدم ارتقاءً يعلمون أنَّهم لم يجدوا أنفسهم خَلقًا، بل خَلقَهم من هو أعظم منهم، فهم يعلمون أنَّهم قبل الخَلق لم يكونوا شيئًا يُذكر، ثمّ أصبحوا شيئًا مذكورًا؛ فهم يعلمون أنّ مشيئة من ورائهم هي التي أرادت لهم خَلقًا؛ ولهذا فهم يدركون أنَّهم قبل الخَلق لم يبلغوا مستوى الوجود الصّفري قيمة، ولكن مشيئة الخالق شاءت لهم أن يكونوا شئيًا فكانوا شيئًا وفي أحسن تقويم: {أَوَّلا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئا}[17].

فبنو آدم لكونهم شيئًا مذكورًا يدركون مشيئة شاءت لهم أن يكونوا خَلقًا وفقًا لمشيئة هم لا يعلمونها؛ ذلك لأنّ المشيء وحده يعلم مشيئة خَلقه، أمّا المخلوق ارتقاءً؛ فلا يدرك إلَّا وجوده مخلوقًا؛ ومع ذلك فهناك من يرى الوجود الكوني مخلوقًا من غير خالق، وهنا تكمن العلّة المعرفيَّة بين من يدرك أنَّه لا مشيئة لمخلوق في خَلقه، ومن لا يدرك ذلك بقوله: "إنّ الكون خلق نفسه ولا خَالق

[16] هود 118، 119.

[17] مريم 67.

من ورائه"[18].

ولأنَ بني آدم بين الارتقاء والدُّونيَّة؛ فهم مختلفون رؤيةً ومعرفةً وعلمًا؛ ولهذا فهم بين معرفة وعلم يؤدِّيان بهم إلى النّهوض قمّة، وجهل يؤدِّي بهم إلى الانحدار والدُّونيَّة.

ولذلك فالإنسان عندما ينهض يرتقي إلى ما يؤدِّي به إلى رتق الأرض بالسّماء، وعندما ينحدر يهوي سُفليَّة في القاع، أي إنَّه عندما يرتقي يجد نفسه وكأنَّه يحتوي الإنسانيَّة في نفسه، ولكن عندما ينحدر يصبح عقله أشبه بعقل الحيوان: {فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَة خَاسِئِينَ}[19].

أي: عندما ينحدر الإنسان ممّا هو عليه من عقل مدبّر، لا شكّ أنَّه يقترب إلى عقل القرد الذي هو في دونيَّة إذا ما قورن بعقل من خلقه الله في أحسن تقويم؛ فمثل أولئك المنحدرون قيمًا هم مثل الحيوان الذي لا يتذكّر فيتّعظ، ولا يتدبّر فيخطط، ولا يفكّر فيرتقي إلى ما يجب أن يكون عليه رفعة؛ ولهذا فلا يليق بالعقل الإنساني أن يتشبّه سلوكه بالعقل القردي، الذي متى ما انحدر إليه الإنسان أصبح لا فرق بينه ومن هو في دونيَّة: {وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ}[20].

---

[18] عقيل حسين عقيل، نحو النظرية خلقا، مكتبة القاضي، القاهرة: 2020م، ص 36.

[19] الأعراف 166.

[20] المائدة 60.

فالإنسان إن لم يُحسن الاختيار ولا أمل له، يجد نفسه في اتجاه السُّفليَّة والانحدار والدُّونيَّة، وإذا امتلك الإنسان الإرادة والأمل يصاحبه صبرًا وتحدّيًا للصِّعاب، تُفتح أمامه السُّبل في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع؛ ولهذا إن كانت الإرادة في حالة ضيق أو منعدمة؛ فلا يجد الأمل مجالًا للامتداد فكرًا ومعرفةً، فالفِكْر الإنساني نتاج ما وصل إليه العقل البشري من معارف وعلوم ورؤى أسّس لثقافات وحضارات سادت، ثمّ بادت، ثمّ نهضت حضارات غيرها، وهكذا ستظلِ الحضارات بين نهوض وارتقاء، وإبادة وسُفليَّة، وفقاً لقاعدة الصّراع بين ما يجب وما لا يجب، وستظلّ الحياة البشريَّة في دورة من التفاعل بين (ارتقاء ودونيَّة) حضارات تسود، ثمّ تبيد، ثمّ تنهض حضارات أخرى.

ولذلك عاش الإنسان الأوَّل حياة الخَلق في أحسن تقويم، ثمّ انحدر سُفليَّة؛ فاتّسعت الهوة بينه وتلك المكانة ارتقاءً؛ فكانت الدُّونيَّة بين يديه سلوكًا على غير فضائل ولا قيم حميدة، وكانت الأساطير ترافقه وكأنَّها الحلّ في الوقت الذي فيه الخرافة لا علاقة لها بما يحقّق الآمال المحدثة للنُّقْلَة وصانعة المستقبل المزدهر.

ومع أنَّ القاعدة المنطقيَّة ترى أنَّ الارتقاء أساس الخَلق البشري، فإنَّ الاستثناء يرى كفّة الانحدار تكاد أن تتعادل مع كفّة الارتقاء، وهنا تكمن العلّة؛ حيث قلّة الجهد المبذول من قِبل من يأمل ارتقاءً، في مقابل الجهد المبذول من قِبل من تشدّه السُّفليَّة. وهذا الأمر يشير إلى أنَّ زمن الصّراع سيطول بين من يأمل رتق الأرض بالسّموات، ومن لا يرها إلَّا مُفتقة طباقًا.

والذي يُعيق العمل عن النّهوض، وإحداث النُّقلة، وبلوغ الارتقاء قمّة هو العمل الذي ينحدر بأصحابه في دونيَّة الأخلاق وسُفليَّة التخلّف السِّياسي والاقتصادي والاجتماعي والإنساني؛ قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحا فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى}[21].

فالإنسان الذي خُلق في أحسن تقويم، هو الإنسان المقوّم للارتقاء، وليس للدّونيَّة، ولكن لأنَّ الارتقاء والدُّونيَّة يتأثران بالمعرفة والتّخيير تذكّرًا وتدبّرًا وتفكّرًا؛ فهما بيد الإنسان رغبةً واختيارًا؛ ولذلك ينبغي لبني آدم أن يعملوا كلّ ما من شأنه أن يؤدِّي بهم إلى إحداث النُّقلة الممكّنة من معرفة المستحيل وبلوغه ارتقاءً حتى يقفون دونه.

ولهذا فمن تُلهه نفسه شهوة غير متوازنة فلن يجد نفسه إلَّا على حالة من الانحدار والدُّونيَّة التي لا تزيده إلَّا تقليل شأن.

فالإنسان الذي خُلق على قمّة النُّشوء ارتقاء، لو لم ينحدر بداية، لكان إلى يومه هذا على قمّة الزَّمن الحاضر في حُسن خَلقه وخُلقه؛ ولكنّ الغفلة قد أخذته فعصى ربَّه؛ فانحدر إلى ما لا ينبغي له، ثمّ حاول النّهوض، ولكنّه ما ازال يحاول وهو بين أمل ويأس. أمل الارتقاء إلى ذلك الماضي تحدٍّ، ويأس بلوغه بعلل الشَّهوة التي لا ترى الأنا إلَّا مركزًا على حساب الغير.

ومن ثمّ ينبغي لبني آدم عند رسم السّياسات أن يجعلوا وراء كلّ هدف غرضًا، من ورائه أغراض تحقّق لهم

---

[21] الكهف 88.

المكانة والكرامة، أي تحقّق لهم المكانة الشَّخصيَّة قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميَّة رفعة، وتحقّق لهم العيش السّعيد قيمة. ولكن إن لم يتحدّوا الصِّعاب ويعملوا ويفعلوا مع وافر الصَّبر فلا شيء لهم إلَّا البقاء على رصيف الحاجة متسوّلين، وهنا يكمن الانحدار علّة[22].

العقل يكسر اوهم الخلافة الفكريَّة:

في زمن الخلافة لم يكن هناك فصل بين صلاحيَّات من يتولَّى رعاية الإسلام: (الدِّين) ومن يتولَّى إدارة شئون الدّولة: (الرَّعيَّة)، أي: إنَّ نظام الخلافة كان راعيًا للدّين وكأنَّه لا فرق بينه والدَّولة.

أمَّا بعد زمن الخلفاء: (أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومعاوية)؛ فقد كان الصِّراعُ داخل الأمَّة - على الخلافة - صراعُ وراثة دمويَّة، وفي المقابل كان الصِّراع مع الخارج فتح دِولٍ وأمصارٍ.

ولأنَّ الخلاف يفرّق ولا يجمع، كان الخلاف بين الذين يؤمنون بربٍّ واحد، ورسولٍ واحد، ولا يفرِّقون بين أحد من رُسله؛ فكان المرتدّون بأسباب حداثة الإسلام، وضعف الإيمان، والاختلاف على من يأتي من بعد الرّسول بأوهام الخلافة؛ فكان الاقتتال بين هذا وذاك قتالا بلا شفقة ولا رحمة؛ كلّ ذلك كان بأسباب عدم قبول الاختلاف: (عدم قبول الرَّأي الآخر). إنَّه الاقتتال من أجل أوهام السُّلطة، وليس الاقتتال من أجل الهداية، ونشر الإسلام، والعدالة، واحقاق الحقِ، ومن ثمَّ أصبح الوهم سيّدا في ميادين الصّراع على السُّلطة.

---

[22] المصدر السابق، ص 76.

ولأنَّه الخلاف المؤدّي إلى الاقتتال بوهم الاستلاء على السُّلطة؛ كان الخلاف بين أهل الدِّين الواحد لا يختلف عن الخلاف مع من هم على دين آخر.

وعليه: فإنَّ الاختلاف والخلاف عبر الزَّمن متلازمان مترافقان في أيِّ مكان، وفي كلِّ دولة؛ وقد بدء الخلاف بعد وفاة رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، واشتد في عهد الدَّولة الأمويَّة (662م – 750م)، ثم من بعدها الدَّولة العباسيَّة.

أمَّا في الدَّولة الفاطميَّة فكان الاختلاف منذ البدء مع مؤسّسها عبيد الله المهدي (909 – 934م)؛ وذلك بعد قضائه على دولة الأغالبة، واتخاذه مدينة المهديَّة بتونس عاصمة له، التي من بعدها زحف الفاطميّون وحلفاؤهم إلى المشرق وأسّسوا القاهرة مع رابع خلفاء العبيديين المعز لدين الفاطمي، وبأسباب الخلاف لم يتبقَّ منهم في الجزائر والمغرب وتونس إلَّا القليل.

وتوسعت الدَّولة الفاطميَّة على حساب الخلافة العباسيَّة، واستولى الفاطميّون على شرق الجزائر ثمَّ تونس ثمَّ ليبيا ومن بعدها صقلية التي بقيت في حكمهم حتى 1061م.

ولأنَّه الخلاف على السُّلطة والحكم، دخل الفاطميّون في صراع مع العباسيين للسيطرة على الشَّام، كما أنَّهم تنازعوا السيطرة على شمال إفريقيا مع أمويي الأندلس، وكذلك تمكَّنوا من السيطرة على الحجاز والحرمين ما بين 965 – 1070م، ولكن صلاح الدِّين الأيوبي انقلب على

الدَّولة الشيعيَّة، وتولَّى الوزارة منذ 1169م وأعاد الخلافة العباسيّة سنة 1171م.

وفي أثناء حكم الدّولة العباسية تكوَّنت فرق دينيّة متعدِّدة عارضت الحكم العبّاسي، وكان محور الخلاف بين هذه الفرق والحكّام العبّاسيين: (أوهام الخلافة)، أو إمامة المسلمين، وكان لكلّ جماعة منهم خصوصيَّاتها السِّياسيَّة في إقامة الحكم الذي تريده ولو كان وهمًا.

وجعلت هذه الفرق النَّاس على خلافات بين طوائف وتحزُّبات، وأصبحت المجتمعات العباسيَّة ميادين تتصارع فيها الآراء وتتناقض، فوسَّع ذلك من الخلاف السياسي بين مواطني الدَّولة حتى تصدَّعت وحدتها، ومن العوامل الداخليَّة التي شجّعت على انتشار الحركات الانفصاليَّة، اتساع رقعة الدَّولة العباسيَّة، وبُعد المسافة بين أجزاء الدَّولة، وصعوبة المواصلات في ذلك الزَّمن، هذه جعلت الولاة في المدن النائية يتجاوزون سلطاتهم، ويستقلّون بشئون ولاياتهم، دون أن يخشوا الجيوش القادمة من عاصمة الخلافة لإخماد حركتهم الانفصاليَّة، والتي لن تصل إلَّا بعد فوات الأوان، ومن أبرز الحركات الانفصاليَّة عن الدَّولة العباسيَّة : حركة الأدارسة، وحركة الأغالبة، والحركة الفاطميّة.

انتهى الحكم العباسي في بغداد سنة 1258م على يد هولاكو خان التتري، الذي قتل من قتل إلى جانب قتله الخليفة وأبناءه؛ فانتقل من بقي على قيد الحياة من بني العبّاس إلى القاهرة بعد تدمير بغداد؛ حيث أقاموا الخلافة مجدَّدا في سنة 1261م.

واستمرت الخلافة العباسيَّة حتى سنة 1519م، عندما اجتاحت الجيوش العثمانيَّة بلاد الشام ومصر، وفتحت مدنها وقلاعها، فتنازل آخر الخلفاء عن لقبه لسلطان آل عثمان: (سليم الأوَّل) فأصبح العثمانيّون خلفاء المسلمين، ونقلوا مركز العاصمة من القاهرة إلى القسطنطينيّة.

هكذا هي نتائج الخلاف وأوهام السُّلطة، بداية استيلاء على السُّلطة، ثمّ صراعات وفتن بين الفرق والطوائف التي حياتها لهوٍ، وفساد، وكيد، ومكر، إلى أن تأتي النِّهاية سقوطا وكسرَ وهمٍ.

الأوهام في دوائر التَّاريخ:

السِّيادة في دوائر التَّاريخ صُنع كرامة؛ بغاية تأصيل الفضائل في الأقوال والأفعال والسُّلوكيَّات الإنسانيَّة، وهي الذَّاكرة الأخلاقيَّة التي ترسم شخصيَّة الإنسان المنتمي اجتماعيًّا ووطنيا، وهي القيمة الخيِّرة التي لا تترسّخ قيمة المواطنة إلَّا بها.

ومن هنا فالسِّيادة هي كبرياء الشّعوب والأمم، وهي القيمة التي لا تؤصَّل الشّعوب تاريخا إلَّا بها، مما يجعل الشّرف والوطن والأمّة والدِّين من المكوّنات الرَّئيسة لذات الإنسان الذي يقبل أن يموت في سبيلها.

وعليه: فشعوب العالم وأممه عبر التّاريخ تناضل من أجل استقرار أمنها وسلامة دولها وسيادة أوطانها؛ ذلك لأنَ الحياة بين الشّعوب والأمم بين مدّ وجزر، فمن يمتلك القوَّة لا يرى لحدود الأوطان أهميَّة، ولا لكرامة الشعوب حُرمة؛ فيقتل، وينهب، ويستعمر احتلالا، وفي

المقابل الشّعوب تنفض الغبار عن ظهورها فتثور، وتنهض، وتحرّر أوطانها، ومن ثمّ تحكم؛ فتسعى لاسترداد قوّتها وسيادتها بين اختلاف داخلي وخلاف مع الخارجي.

ومع ذلك كَتبَ التّاريخ شهادته لمن أراد حرّيَّة من أجل دينه وسيادته، وكذلك كَتَب شهادته لمن أراد أن تقوم الدّولة الدِّينيَّة، كما أنّه كَتب شهادته لمن يريد أن تقوم الدّولة القوميّة، وهكذا هو يكتب لمن يريدها دولة وطنيَّة ذات سيادة.

وللتميز بين سيادة هذه وتلك، أقول:

إنَّ الدّولة الدِّينيَّة لا تؤسّس إلَّا على وحدة الدِّين سيادة، أمَّا الدّولة القوميَّة فلا تؤسّس إلَّا على وحدة الأصل (الدّم) سيادة، أمَّا الدّولة الوطنيَّة فهي الدّولة التي لا تؤسّس إلَّا على وحدة تراب الوطن، وسيادة الشّعب بمختلف أديانه، وأعراقه، وأعرافه، وانتماءاته، ولغاته، واتجاهاته؛ فلا أحد في الوطن أفضل من الآخر.

ولأنَّ بسيادة السِّيادة الوطنيَّة تُصان كرامة الشّعوب وتُحفظ، فإنَّ أيّ مساس بها يعدُّ مساسا بكل الشّعوب وان اختلفت أو تخالفت، مما يجعل الاعتداء على سيادة أيّ شعب وكأنَّه الاعتداء على سيادة الشعوب كلها، ومن هنا شعوب العالم ودوله يتعاضدون من أجل استرداد السِّيادة لأيِّ شعب ثم الاعتداء على سيادته.

ولأنَّنا مع الاختلاف والخلاف من أجل الوطن، فإنَّنا لا نكون معهما إلَّا لأنَّنا نميّز بينهما (خلافٍ واختلاف)؛ فالاختلاف من أجل الوطن هو الاختلاف المستظل تحت

مظلّة ممارسة الحرّيَّة بأسلوب ديمقراطي؛ فأنا على سبيل المثال: لا نختلف عنك أنت في شيء كوننا أبناء الوطن الواحد، ولهذا مِن حقّي كما هو مِن حقّك أن تكون حريصا على وحدة ترابه، وسلامة أمنه، وسيادة شعبه، ولكن أنا لن أكون أنت إن قرّرت التفريط في هذه أو تلك، وهنا سأكون مختلفا معك، وإن أقدمت على فعلٍ يسيء للوطن سأكون مخالفا لك بالتمام، وهنا يكمن الفارق بين مفهوم الاختلاف والخلاف على الوطن أو من أجله.

وكما أنَّ الاختلاف مجازٌ من أجل الحرّيَّة والسِّيادة الوطنيَّة؛ فكذلك الخلاف من أجلها مجازٌ؛ ولذا فمن يختلف معك في الوطن له الحقّ في الاختلاف، ولا ينبغي معه الخلاف بما أنّه يختلف معك من أجل الوطن وسيادة شعبه ، ولكن إن خالفك في شيء يكون على حساب الوطن فمن حقّ الوطن عليك أن تخالفه فيه، ومع ذلك لا ينبغي أن تيأس من عودته إليك من أجل الوطن؛ ولذلك أعمل على تصحيح المعلومات الخاطئة لديه بالمعلومات الصائبة لديك.

إذن: ينبغي أن نميّز بين أمرين من أجل الوطن:

ـ الأمر الأوَّل: داخل الوطن لكلِّ مواطن حقوق تمارس، وواجبات تؤدّى، ومسؤوليَّات تُحمل؛ ولذلك فمن حقّ أيّ مواطن أن يختلف معك من أجل أن يمارس حقوقه، أو يؤدّي واجباته، أو يحمل مسؤوليَّاته، ولا حقّ لك من هذه الزاوية أن تخالفه في شيء منها، مع تقدير الجميع للقدرات، والمهارات، والاستعدادات، والتخصص، والخبرة، والتجربة، ولكلٍّ حسب ما يستطيع من أجل مصلحة

الوطن وسلامة سيادته، وليس من أجل مصلحة مواطنٍ على حساب الوطن وسيادة شعبه.

ـ الأمر الثَّاني: من يخالفك على سيادة الوطن ليجعله وطنا تابعا لأوطان الآخرين فعليك بالخلاف معه، أي: عليك بالخلاف على الوطن؛ فالخلاف على الوطن لا يجاز إلَّا من أجل الوطن وسيادته، أمَّا الاختلاف في الوطن فهو المجاز لكلّ مواطن سيادة.

وكما أنَّ الاختلاف في الوطن حقّ تجيزه حقوق وواجبات ومسؤوليَّات المواطنة فكذلك الخلاف على الوطن حقّ مجاز بالمعطيات ذاتها، ودون إكراه، {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} .

ومع أنَّ الدّولة الوطنيَّة بين اختلاف وخلاف، فإنَّها هي الدّولة العصريّة التي فيها تختفي التفرقة بين المواطنين وبخاصّة إذا كان شعب الدّولة الوطنيَّة ليس على دين واحد، أو أنّهم ليسوا من دمٍ واحدٍ؛ ولذا فإن كان المواطنون على دين واحد فالتّطابق بين الوطن والمواطنين يكون تطابقا تأمَّا، ولا استغراب أن تكون الدّولة دينية، وكذلك تقوم الدّولة القوميّة إن كان التطابق بين الوطن والمواطنين الذين جميعهم من أصل واحد (وحدة الدّم).

أمَّا إذا كان التنوّع والاختلاف الدِّيني والعِرقي والثقافي هو السَّائدة بين بني الوطن؛ فلا شكّ أنّ الدّولة الوطنيَّة هي الحلّ سيادة، ومن هنا يصبح الاختلاف في الوطن مشرّعا ومدسترا، ويصبح الخلاف عليه هو الآخر مشرّعا ومدسترا.

ولأنَّ في الاختلاف تنوّعا معرفيا فخطوطه غير متوازية بالتّمام؛ ولذا فكلّ ما هو مشكوك في أمره أو تلحقه الظنون فهو موضع اختلاف إلى أن يتمّ التبيّن الذي من بعده تُتّخذ المواقف، ثمَّ تُصدر القرارات عن وعي ودراية.

ومع أنَّ الاختلاف في الوطن يجب أن يؤدّي إلى اللقاء والتحاور والتفاهم، فإنَّه في الأنظمة الدِّكتاتوريّة على غير ذلك؛ فهي أنظمة ذات رأي واحدٍ، ولونٍ واحد، ورئيس واحد، وقائدٍ واحد، ومفكر لا مفكّر معه، وملك لا ملك معه، وشيخ قبيلة لا شيخ معه، ولهذا كان الخلاف معهم عبر التَّاريخ على أشدّه من أجل السِّيادة؛ ذلك لأنَّ رؤوس النُظم الدِّكتاتوريَّة لا تقبل بوجود مساحة للاختلاف إلَّا وأن تكون مساحة تسمح للبعض أن يمتدّ فيها على حساب البعض الآخر.

أمَّا في الأوطان ذات الأنظمة الدِّيمقراطيَّة فالاختلاف بين بني الوطن حقّ تكفله الشرائع والدساتير؛ ذلك لأنَّه الاختلاف الذي لا يؤدّي إلَّا إلى الالتقاء والتحاور والتفاهم ورسم السِّياسات الوطنيَّة من أجل السِّيادة.

وفي المقابل الخلاف في تلك الأوطان لا يكون إلَّا بين المخالفين للشرائع والدّساتير ممّا يجعل خلافهم خلافا مع سيادة الوطن، ومثل هذا الخلاف لا يكون إلَّا من

قِبل أعداء الوطن؛ ولذلك يسود الخلاف بين الأعداء، وفي المقابل يسود الاختلاف بين من تجمعهم المعطيات العرقيّة والدِّينيَّة والقيميَّة والأخلاقيَّة والوطنيَّة، أي: من أجل الدِّين يلتقي المختلفون، ومن أجل وحدة الدّم يلتقي المختلفون، ومن أجل القيم الحميدة يلتقي المختلفون، ومن أجل الأخلاق الكريمة يلتقي المختلفون، وهكذا من أجل السِّيادة الوطنيَّة يجتمع المواطنون المختلفون ويلتقون من أجله وطن للجميع.

ومن هنا فالاختلاف يمكن أن يؤدّي إلى الخلاف، أمَّا الخلاف فلا شيء من بعده إلَّا القتال إن لم يكن للعفو والصفح والتسامح والتصالح مساحة للامتداد.

ولأنَّ وراء فرض الرَّأي سلب سيادة وإرادة، فالخلاف لا بدَّ وأن يكون سائدا بين المتخالفين، حتى تُسترد السِّيادة طوعا أو كرهًا، ومن هنا سيظل الخلاف سائدا كلّما حاول أن يسود ظالم أو متجبّر؛ ولذا فـالخلاف قطيعة، أمَّا الاختلاف فمجالات الاتصال والتلاقي فيه أبوابه مفتّحة، من أجل التفاهم على المصالح المشتركة والمستقبل الوطني والسِّيادة التي لا تسود إلَّا بالعموم.

وعليه: فالاختلاف لا يزيد عن كونه عدم اتفاق يستوجب اتفاقا فإن تمّ الاتفاق خرج المختلفون برؤية مشتركة، وإن لم يتفقوا سيكون السعي مستمرّا من أجل معرفة علل الاختلاف؛ ولذلك كلّما وُجد اختلاف وجب الاتفاق، وكلّ ما وُجد خلاف كانت المصادمات على أشدّها ممّا يستوجب تدخّلا وحلّا. {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا

أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}[23].

في هذه الآية الكريمة قال شعيب عليه الصَّلاة والسَّلام: (وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ) ولم يقل: (وما أريد أن اختلف معكم)، فالأولى: لا تستوجب خلافا مع ما بُعِثَ شعيب من أجله، فشعيب يدعو لما أُمِرَ به وهو الحقّ، ولأنَّه على الحقّ فلا يمكن له أن يخالفه، وفي المقابل سيختلف مع الكافرين حتى يؤمنوا بالحقِ الذي جاء به شعيب نبيًّا لله تعالى.

ومع أنَّ الاختلاف لا يكون عائقا أمام تحقيق الأهداف المشتركة واجبة البلوغ سيادة، فإنَّه عائق أمام من لا يريد تحقيقها؛ ولذا فالنَّاس مع أنَّهم في الأصل أمّة واحدة، فإنَّهم بعد الرّسالات السماوية اختلفوا، ومن ثمّ تخالفوا بعد أن أصبح البعض مؤمنا، والبعض الآخر كافرا، {وَمَا كَانَ النَّاس إِلَّا أُمَّة وَاحِدَة فَاخْتَلَفُوا}[24]، ومن هنا فلا سيادة آمنة والنَّاس على الخلاف.

دائرة الأنا العسكريَّة:

مع أنَّ مفهوم الأنا مفهوما مفردا فإنَّه عندما يصبح صفة لمهنة من المهن، أو لنقابة من النقابات، أو جماعة من الجماعات، أو مؤسّسة من المؤسَّسات كما هو حال المؤسسة العسكريّة يصبح مظلة جامعة لرؤية واحدة أو مصلحة واحدة مما يجعل رئيس الحزب أو آمر الجيش وكأنَّه الحزب كله أو الجيش كله؛

---

[23] هود 88.

[24] يونس 19.

ولذا يصبح الأنا مظلة به يستظل كل المنتمين للمؤسسة العسكرية بعد أنْ تسيطر المؤسَّسة العسكرية على مقاليد الحكم في الدَّولة، ومن ثمَّ يُصبح مصير الدّولة سياسة واقتصادا واجتماعا بأيدي من قاموا بالانقلاب على السُّلطة المدنيَّة؛ ومن ثمَّ يحتكرون السُّلطة، ولا تداول سلمي لها في عهدهم.

وفي عهد الدَّولة العسكريَّة تُفعَّل الأحكام العسكريَّة على المدنيين بحيويَّة التوجيهات العليا للقيادة، مما يجعل القضاء المدني مجمَّدا فلا يتدخل في القضايا السَّاخنة والمصيريَّة.

ومع أنَّ كلّ الانقلابات العسكريَّة التي حدثت عبر التَّاريخ، وأينما حدثت تنقلب على السُّلطة باسم الشَّعب والوطن؛ فإنَّها في حقيقة الأمر لا تولي للشَّعب ولا للوطن اهتماما، بل لا يرى رأس الانقلاب أو رؤوسه عدوّا لهم ولحكمهم إلَّا الشَّعب، الذي اتخذ المنقلبون اسمه وهمًا عنوانا لثورتهم (ثورة الشَّعب) في الوقت الذي هم فيه منقلبون على إرادته.

ولذلك فهم يرفعون شعارات برَّاقة وجذَّابة في بدايات استلائهم على السُّلطة، بها يستطيعون جذب أنظار الواهمين من الشَّعب، وكأنَّهم المنقذ له مما يعاني من تأزُّمات سياسيَّة واقتصاديَّة واجتماعيَّة.

وبعد أنْ يقفوا على أقدامهم أمنا وسيطرة؛ يلتفتون إلى بعضهم بعضا (من ينفرد بالأمر، ويصدر الأوامر دون غيره)، فتلدُ الظّنون بينهم ظنونا، ويلتفت كلٌّ منهم إلى أطرافه إنْ لم يباغته أحد الأطراف فيجعله على رأس التآمر

ضحيَّة، وهكذا تبدأ الانقلابات بأفرادٍ وكأنَّهم كلمة واحدة وعُصبة، وفي النِّهاية تنتهي الانقلابات ولا ترسو إلَّا على واحدٍ (أنا ومن بعدي الطوفان)، ومن ثمَّ لا يحصد الشَّعب من ورائه إلَّا الأوهام.

وبعد أن يستقر الأمر على واحد تصبح كل مقاليد الدَّولة بيده، وهو الآمر والنَّاهي عسكريّا ومدنيّا، ومن ثمَّ فمن يخالف الأمر فكتائب الأنياب (الكلاب المدرَّبة على شمّ الأثر) تلاحقه بمخالبها ديمقراطيّا من أجل أن تمارس معه حقوقه، وتؤدِّي معه واجباتها.

ومع ذلك فإنَّ عِلل انقلاب المؤسّسة العسكريَّة واحدة، وأوهامها واحدة (حكمٌ عسكري بدلا من حكمٍ مدني)؛ ولهذا ينقلبون على السُّلطة المدنيَّة بوهمِ السَّيطرة العسكريَّة، وقهر إرادة الشَّعب، ومع أنَّهم مُتَخفُّون بلباس الشَّعب، ويرفعون الشِّعارات من أجله، فإنَّهم لا يثقون فيه، وكيف يثقون في الشَّعب وهم الذين انقلبوا على دولته المدنيَّة، وإرادته الحرّة؟!

ولذا فالانقلابات العسكريّة موهومة بالاستلاء على السُّلطة وتولِّي زمام الأمر في الدَّولة، فبها تلغى الدّساتير، ويوقف العمل بالقوانين المعمول بها، ويطلق العنان للتوجيهات الآمر والنَّاهية من قِبل رأس الانقلاب أو مدّعي الثَّورة.

وبهذه الأفعال المملوءة أوهاما لا يمكن لمن قام بانقلابٍ أو ثورةٍ أن يكون يوما من أيَّام حُكمه آمنا، لأنَّه يعلم أنَّ ما أُخذ بالقوَّة كرهًا سيكون من ورائه كارهون، كما أنَّه يعلم أنَّ خيانة العهود ممكنة؛ فهي بالتمام لا تزيد عن

الخيانة التي خان بها ذلك القسم الذي أَقسم به عندما التحق بالعسكريَّة أن يكون مخلصا لرأس الدَّولة والوطن.

ولهذا فَمعظم الذين انقلبوا على أنظمة الدِّول أو ثاروا عليها؛ قد تمَّ الانقلاب عليهم بذات المنهج والوسيلة، ويحضرني في هذا الشأن الحكمة التي قالها (جورج دانتون) بعد إسقاطه ورفاقه الملكية في فرنسا 1789م فيقول دانتون: "الثورة يخطط لها المفكّرون، ويقوم بها الشّجعان، ويجني ثمارها الانتهازيون"[25]، وقبيل إعدامه بانقلاب عليه من قبل رفاقه عام 1794م قال: (إنَّ الثورة تأكل أبناءها)، وأُعدم بأمر: (أوبسير) وهو أحد أقرب الرِّفاق المقربين منه، فقال دانتون لرفيقه الذي كان وراء إعدامه، وهو أوبسير: (سوف يأتي عليك الدّور)، وفعلا جاء الدّور على أوبسير وأعدم بعده بعد أربعة أشهر فقط[26].

وهكذا تشابهت أحوال الثورة المصريَّة عام 1952م، التي انقلبت على الملكيّة وعيّنت رأس الثورة اللواء محمد نجيب رأسا موجّها للدولة؛ غير أنَّ صراعا على السُّلطة نشأ بينه وجمال عبد النَّاصر إلى أن حُسم الأمر لصالح الرَّئيس جمال عبد النَّاصر، الذي جعل رفيقه رأس الثورة اللواء محمَّد نجيب تحت الإقامة الجبرية في قصر زينب الوكيل حرم مصطفى النحَّاس بالقاهرة حتى وفاته. وتولى الرَّئيس جمال عبد الناصر حكم مصر من (1954م حتى وفاته عام 1970م؛ وكان توليه هذا تحت عنوان:

---

[25] أحمد عصام الدين: عن الثورة الفرنسية، القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، 1971 م ص 173.

[26] جلال السيد، الثورة الفرنسية والفكر العربي، القاهرة: مجلة الهلال المصرية، عدد سبتمبر 1989م

(شرعيَّة الثَّورة)، التي أسقطت الدولة المدنية والعمل بدستور 1923م[27].

وهكذا كانت الانقلابات في اثيوبيا على يد مجموعة من الضبَّاط، وعلى رأسهم (منغيستو هيلا ميريام) الذي انقلب على الحكم مع مجموعة من الضبَّاط واستولى على السُلطة، ثم سرعان ما تخلّص من 40 ضابطا كانوا على علاقة به، ثم من بعدهم أعدم رفيقه المقرَّب (أتنافو أباته) على حين غرّة 1977م؛ خوفا من أن يفكّر يوما بعمليَّة انقلابيَّة، ومع ذلك تمَّ الانقلاب على (منغيستو) كما قلنا بنفس المنهج والوسيلة؛ فقتل 18 ضابطا من الضباط الذين ناصروه، أمَّا هو فقد فرَّ لاجئا إلى (زمبابوي) وكأنّه لم يكن شيئًا مذكورا[28].

وهكذا هي أحوال الانقلابات العسكريَّة (المنهج واحدٌ والأسلوب لم يتغيَّر) فما جرى من انقلابات واقتتالات من أجل الاستلاء على السُلطة في العراق، وسوريا، لا يختلف عمَّا جرى في ليبيا، واليمن، وفي معظم دول أمريكا الجنوبيّة وأفريقيَّة.

فتلك الانقلابات والثورات بعدما تسيطر بالقوَّة على الدولة (شعبا ومؤسَّسات) تتظاهر بأنَّها ديمقراطيّة، وتدّعي ذلك بتشكيلها حكومات شبه مدنيَّة (وزراء مدنيون مع عسكريين)، ومن فوقهم الآمر العسكري رئيسا للدَّولة، وهذا يعني: أنَّه لا مرجعيَّة في الدَّولة إلَّا الآمر العسكري وحده.

---

[27] فتحي رضوان، أسرار ثورة 23 يوليو 1952م، القاهرة: (مجلة روز اليوسف)، يوليو 1975.

[28] الرأي، منغيستو هيلا ميريام، 29- 5- 2008م

وعلى الرُّغم من ذلك وبعد أن يستسلم الشَّعب للأمر الواقع ويرضخ؛ يُفسح له المجال نسبيّا بخوض انتخابات تسمح للقائد العسكري بالتدخُّل والتوجيه وفقًا لما يراه ضرورة؛ كونه المتقدّم الوحيد للانتخابات الرِّئاسيَّة.

ومع أنَّها انتخابات شكليَّة وفوز شكلي، يتم التغنّي به وكأنَّه الأرفع ديمقراطيّا في جميع بقاع العالم؛ فيطلب من العموم الواهم أن يتظاهر في الشَّوارع ليحتفل بالفوز الذي تزيدُ نسبتهُ عن 99% من عموم الأصوات.

ومثل هذه الانتخابات لا تزيد عن كونها رسائل مشفَّرة لكلٍّ من:

- العسكريين الذين قد يكون من بينهم رؤوس تعتقد أنَّها ما زالت صاحبة رأي، أو ينبغي أن يكون لها رأي في الدَّولة العسكريَّة.

- المدنيّين الذين لم يرضوا ولم يقبلوا بحكم المؤسَّسة العسكريَّة.

- العالم الخارجي المتحضّر الذي لم يكن أساسا راضٍ عن الانقلابات العسكريَّة.

ومع أنَّ الجميع يعرف أنَّ ما حدث لا يزيد عن كونه تمثيليّة من نسيج الوهم فإنَّه بأسباب المصلحة تتم المباركات باستثناء فئتين:

ال

-واعين: الذين يقادون بعقولهم لا بأوهام الغير، وهؤلاء هم القلة.

- الواهمين: الذين يحلمون بذات الوهم الذي حَلِمَ به مَن انفرد بالسُّلطة في البلاد.

وعليه: سيكون واهما من تُغرِّر به تلك المسيرات الشّعبيّة التي يتم التظاهر بها في الدِّول ذات الأنظمة غير الدِّيمقراطيَّة، والتي لا تخرج إلَّا بالأوامر، ولا تنتهي إلَّا بها، وكذلك سيكون واهما من يصدّق أنَّ تلك المبايعات التي تابع القبائل بها من استولى على السُّلطة وأستفرد بها بأنَّها مبايعات مخلصة وحاسمة للأمر، وأيضًا سيكون واهما من يثق في تقارير التنمية والتطوُّر وحقوق الإنسان، التي تصدرها الأنظمة الخاضعة للرأي الواحد الذي في معظمه نتاج انقلابات عسكريّة، وليس بانتخابات حرة ونزيهة.

ومن أجل إطالة عمر الديمقراطيَّات المزيّفة ورؤوسها، وبخاصّة عندما تكثر مفاسد رأس الدَّولة، وأبنائه وأقاربه، وأتباعه، يختلق رأس الدَّولة المشاكل مع الغير، أو حتى المعارك، التي بها وهمًا يكسب تأييد الشّعب، وتجديد المبايعة له من خلال وهمه بقدوم مخاوف وعدوان من الخارج يتطلَّب من كافّة الشَّعب التدريب على حمل السّلاح من أجل الوطن، ومن أجل الوطن أيضًا ينبغي أن يتبرَّع المواطنون بمرتّب شهري من مرتّباتهم، ومن أجل الوطن ارتدى الرّئيس بزّته العسكريَّة وقبل بالاستشهاد دونه، وهكذا تتعدّد الأوهامُ والواهِم واحد.

ولأنَّه لا مشروع ولا مصداقيَّة في إدارة الدّولة العسكريَّة، فلا بدّ لِصبر الشُّعوب وأن ينفذ، مما يجعل

الخائف من الموت مطالبا به؛ وذلك من أجل إعادة إرادة قُهرت، وسيادة سُلبت.

ومن ثمَّ لن يعود الوطنُ كما يراه البعض صنما مثل ذلك الصَّنمُ في العصر الجاهلي، الذي كان يتحدّثُ باسمه كاهنٌ لعُبَّاده: (كون الصَّنم لا ينطق)، فكان الكاهن كُلَّما رغب مطلبا تحدَّث لعبَّاده باسم الصَّنم، وفي كلِّ مرَّةٍ يقول الكاهُنُ: إنَّ الصَّنم يطلب كذا وكذا، فيلبي العُبَّاد مطلبه؛ بغاية نيلهم رضا الإله (الصَّنم)، وهنا بالطّبع لن يعود المطلوب على الصَّنم في شيء، بل يعود على الكاهن، ويظل العبَّاد ينتظرون رضا المعبود من دون الله، حتى يبلغهم الكاهن برضاه، أو يبلغهم بمزيدٍ من المطالب.

هكذا بعض السَّاسة في أوطانهم يتحدَّثون، ويطلبون من الشَّعب تقديم المزيد من التضحيات؛ من أجل الوطن، وهنا إن لم يكن حال الوطن مِلكٌ لجميع مواطنيه، فسيكون حاله كحال ذلك الصَّنم؛ فكلاهما لا ينطق: (الصَّنمُ، والوطنُ)؛ ما يجعل الفارق منعدما بين النَّاطق باسم الصَّنم، والنَّاطق باسم الوطن.

ولهذا فعندما يطلب السَّاسة من المواطنين أن يُضحَّوا، ويقدِّموا المزيد من التضحيات؛ من أجل الوطن، فالتضحية هنا في حقيقة الأمر لا تزيد عن كونها تضحية من أجل صنمٍ.

وهكذا بالتمام عندما يقول رئيس الحزب في الأنظمة غير الدِّيمقراطيَّة (أيِّ حزبٍ) لأعضاء حزبه: عليكم أن تقدِّموا المزيد من التضحيات من أجل الحزب فهو في

حقيقة أمره يريدهم أنْ يضحوا من أجله، وأجل بقائه كاهنا لصنمٍ لا ينطق (الحزب).

ولذا علينا أن نؤكِّد: أنَّ الشَّعب هو من يمتلك الوطن، وليس الوطن من يمتلك الشَّعب، وبذلك تصبح التَّضحيات واجبةَ الأداء، والموتُ من أجله يخلق الحياة، ومع ذلك علينا أن نميِّز بين: أيُّهما أولى: الموتُ من أجل الشَّعب؟ أم الموتُ من أجل الوطن؟

لا شكَّ أن خيار الإجابة هنا أصبح بيِّنا، ولكن عندما يكون السُّؤال:

أيَّهما أولى: التضحية من أجل الصَّنم؟ أم التضحية من أجل الكاهن؟

إذا قلت: لا إجابة؛ فأنت قد أجبت، وإن قلت إجابة فستجد نفسك بين فكي كاهن الوطن وكتائبه ذات الأنياب، وحينها ليس لك بدٌّ إلَّا الاعتراف بأنَّك لا تزيد عن كونك عاملًا في مزرعة الكاهن، الذي له حريَّة التصرُّف في مزرعته بيعا، واستغلالا، أو أن يتركها أرضا بورا، وكلُّ هذا؛ كي لا تحلم بأنَّك مواطنٌ حرٌّ في وطنك، وإن صدَّقت نفسك في غير ذلك فستكتشف يوما أنَّك أوَّل من كَذَبَ على نفسهِ.

ولهذا فالكاهن الذي يُنصِّب نفسه كاهنا على الوطن لن يكون الوطن في زمانه إلَّا صنما، ومن ثمَّ فلن تجد التضحيات مكانا لها لتحلَّ فيه[29].

[29] عقيل حسين عقيل، أوهام الأنا (اللاهويَّة) المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة 2022م، 19 – 94.

أوهام الخلاف على السِّيادة:

الخلافُ على الوطن يجعلُ أصواتَ الاعتراضِ بين المواطنين تَرتَفعُ، وكأَنَّ الأمرَ لا تحسمه حُجَّة، أمَّا الاختلافُ إن ساد بين المواطنين من أجلِ سيادتهم، سادوا في أوطانهم سادة، وفي المقابل إن تَخالَفُوا على سيادتهم وَهَنُوا، وساد على حساب سيادتهم سادةٌ، ومن ثمَّ يُعدُّ (الاختلاف) بين النَّاس قاعدة، أمَّا (الخلاف) فلا يكون إلَّا استثناء.

ومع أنَّ الخلافَ علّةٌ في ذاته، فإنَّ العللَ من خلفه أكثر؛ إذ لا يحل الخلاف بشعبٍ إلَّا وعدم الاتفاق يكون سائدا، ولا يسود الظُّلم والفساد، والحرمان، والتهميش إلَّا والخلاف سائدا، وفي المقابل ينعدم الخلاف بسيادة العدالة بين الشَّعب وممارستهم الحريَّة بأسلوبٍ ديمقراطي.

ومن ثمَّ لن يعد الوطنُ كما يراه البعض صنما مثل ذلك الصَّنمُ في العصر الجاهلي، الذي كان يتحدّثُ باسمه كاهنٌ لعُبَّاده: (كون الصَّنم لا ينطق)، فكان الكاهن كُلَّما رغب مطلبا تحدَّث لعبَّاده باسم الصَّنم، وفي كلِّ مرَّةٍ يقول الكاهُنُ: إنَّ الصَّنم يطلب كذا وكذا، فيلبي العُبَّاد مطلبه؛ بغاية نيلهم رضا الإله (الصَّنم)، وهنا بالطبع لن يعود المطلوب على الصَّنم في شيء، بل يعود على الكاهن، ويظل العبَّاد ينتظرون رضا المعبود من دون الله، حتى يبلغهم الكاهن برضاه، أو يبلغهم بمزيدٍ من المطالب.

هكذا بعض السَّاسة في أوطانهم يتحدَّثون، ويطلبون من الشَّعب تقديم المزيد من التضحيات من أجل الوطن،

وهنا إن لم يكن حال الوطن مِلكٌ لجميع مواطنيه سادة، فسيكون حاله كحال ذلك الصَّنم، فكلاهما لا ينطق: (الصَّنمُ، والوطنُ) ما يجعل الفارق منعدما بين النَّاطق باسم الصَّنم، والنَّاطق باسم الوطن.

ولهذا فعندما يطلب السَّاسة من المواطنين أن يُضحَّوا، ويقدِّموا المزيد من التضحيات من أجل الوطن، فالتضحية هنا في حقيقة الأمر لا تزيد عن كونها تضحية من أجل صنمٍ.

وهكذا بالتمام عندما يقول رئيس الحزب (أيِّ حزبٍ) لأعضاء حزبه: عليكم أن تقدِّموا المزيد من التضحيات من أجل الحزب فهو في حقيقة أمره يريدهم أنْ يضحوا من أجله، وأجل بقائه كاهنا لصنمٍ لا ينطق.

وعليه: رحم الله شهداء الوطن، مع العلم أنَّه لا شهداء من أجل الوطن إنْ لم يكن الوطن للجميع سكنا آمنا، وعيشا رغدا، وسيادة وكرامة؛ وعندما يمتلك الشَّعب الوطن كلَّه تُصبح التضحيات كلُّها من أجلهم سيادة: (من أجل سيادة الشَّعب)، وعندما يمتلكه الحاكم فلا تضحيَّات إلَّا من أجل الكاهن؛ ولذا علينا أن نؤكِّد: أنَّ الشَّعب هو من يمتلك الوطن، وليس الوطن من يمتلك الشَّعب، وبذلك تصبح التَّضحيات واجبةُ الأداء، والموتُ من أجله يخلق الحياة ويعد السِّيادة كلما سُلبت، ومع ذلك علينا أن نميِّز بين أيَّهما أولى: الموتُ من أجل الشَّعب؟ أم الموتُ من أجل سيادة الوطن؟

لا شكَّ أن خيار الإجابة هنا أصبح بيِّنا، ولكن عندما يكون السُّؤال:

أيهما أولى: التضحية من أجل الصَّنم؟ أم التضحية من أجل الكاهن؟

إذا قلت: لا إجابة؛ فأنت قد أجبت، وإن قلت إجابة فستجد نفسك بين فكي كاهن الوطن، وكتائبه ذات الأنياب، وحينها ليس لك بدٌّ إلَّا الاعتراف بأنَّك لا تزيد عن كونك عاملًا في مزرعة الكاهن، الذي له حريَّة التصرُّف في مزرعته بيعا، واستغلالا، أو أن يتركها أرضا بورا، وكلُّ هذا كي لا تحلم بأنَّ لك سيادة، أو أنَّك مواطنٌ حرٌّ في وطنك، وإن صدَّقت نفسك في غير ذلك فستكتشف يوما أنَّك أوَّل من كَذَبَ على نفسهِ.

ولهذا فالكاهن الذي يُنصِّب نفسه كاهنا على الوطن لن يكون الوطن في زمانه إلَّا صنما، ومن ثمَّ فلن تجد التضحيات مكانا لها لتحلَّ فيه.

وعليه:

فمن يرى نفسه في الوطنِ خليفة، أقول: لقد انتهى زمن الخلافة؛ إذ لا وجود لخليفةٍ قد صَاحَبَ رسول الله - عليه الصَّلاة والسَّلام- ، كما هو حال: (أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومعاوية)، ولهذا فالأحزاب التي تدَّعي أنَّها الخليفة، أو إنَّها قادرة على إعادة نظام الخلافة (هو كما هو)، فهي كمن يرى نفسه قادرا على إيقاف حركة التَّاريخ عند دائرة من دوائره دون غيرها؛ وذلك من خلال إدارة عجلته إلى الخلف، حتى يقف عند ذلك العصر، الذي كان فيه نظام الخلافة مناسبا في دائرة النسبيَّة، وهو ذاته النظام الذي لن يكون مناسبا لعصر الدَّولة الوطنيَّة، وفي المقابل مَن يرى نظام الخلافة مناسبا فَرؤاهُ لا تزيد عن

كونها رؤية كاهن يريد أن يخدع النَّاس ويرهقهم بمطالب الإله (الصَّنم) ، وإذا ما تحقق ذلك فلن يكون إلَّا على حساب السِّيادة الوطنيَّة، التي لا ينبغي أن يكون شيئًا على حسابها.

ومن ثمَّ أقول: لقد انتهى زمن الأصنام، وكُهَّانها برسالة محمَّد رسول الكافَّة -عليه الصَّلاة والسَّلام- وأنَّ لكلِّ دائرة من دوائر التَّاريخ خصوصيَّة ينبغي أن تُقدَّر، وأن تؤخذ العِبر منها؛ بتجنُّب ما يجب تجنُّبه، والأخذ بما ينبغي أخذه.

ومن هنا أقول لمن يريد إعادة نظام الخلافة الرَّاشدة: عليك بإعادة أبي بكر الصّدِّيق، وعمر بن الخطَّاب -رضي الله عنهما- أحياء على قيد الحياة، وفي المقابل من يريد أن يكون خليفة في عصره فعليه بالدَّولة الوطنيَّة خليفة؛ حيث الحقوق تمارس عن إرادةٍ، والواجبات تؤدَّى عن رغبة، والمسئوليَّات تُحْمَلُ مع تحمُّل ما يترتَّب عليها من أعباء جسام، ومن ثمَّ فلا خليفة في الوطن إلَّا الشَّعب وسيادته الحرَّةُ دون سواه.

أوهام تسقط وتبقى السِّيادة:

مع أنَّ السِّيادة العظيمة لا تكون إلَّا سيادة وطن فإنَّ البعض لا يرى سيادة للوطن إلَّا بسيادته على سُدّة الحكم، ووفقًا لهذا المفهوم ساد بعض النَّاس على البعض سادة، وسادت قبيلة على قبيلة، وساد حزب على حزب أو أحزاب أخرى، أو أنَّه ساد على بقيّة ألوان الطيف في الدّولة، ومع ذلك نضال الشعوب لم ينقطع عبر التَّاريخ من أجل استرداد السِّيادة.

فمن أجل استرداد السِّيادة الوطنيَّة كان ما قبل القرن الواحد والعشرين للنضال القومي معنى، وللثّورة القوميّة معنى، وكذلك كان للتنظيمات الدِّينيَّة دلالة ومعنى، وكانت للأحزاب العقائديَّة دلالة ومعنى، أمَّا اليوم فإنَّ ل لقرن الواحد والعشرين لغة ومنطقا ودلالة ومعنى جديدين، بالأمس فقط كان الصّراع في العراق بين سنّة وشيعة وعرب وأكراد وتركمان وفرق متلوّنة بألوان الطّيف العراقي، واليوم وغدا سيكون الصّراع ليس من أجل السنّة أو الشيعة أو الأكراد أو التركمان أو غيرهم من المسمّيات الأخرى، بل الصّراع الحتمي أصبح لغة ومنطق القرن العشرين من أجل الوطن الواحد الذي فيه يكون المواطن قادرا على ممارسة حقوقه كيفما يشاء الجميع، ويؤدّي واجباته فيه كيفما يشاء الجميع، ويحمْل مسؤوليَّاته فيه كيفما يشاء الجميع.

ولذا فإنَّ منطق ولغة القرن الواحد والعشرين تؤكد بحقٍّ أنَّ الوطن للجميع، والثّروة فيه للجميع، والسِّياسة فيه تُرسم استراتيجيَّاتها من قِبل الجميع، والمكوّن الاجتماعي هو المكوّن الوطني من الحدود إلى الحدود، فلا مكان للفُرقة ولا الفرق المدفوعة برؤاها الخاصّة وأيديولوجيّاتها الخاصّة وأنانيّتها الخاصّة، وثقافتها الخاصّة، وتفسيراتها الخاصّة فالكلّ يتحرّك ويعمل من أجل السِّيادة الوطنيَّة، ولذا فلا قائد يجمع هذه المتناقضات ويصهرها في بوتقة واحدة إلَّا المشاركة الممكّنة من ممارسة الحريّة التي تجعل للمواطن هويَّة وللوطن سيادة.

ومن هنا لن تكون للطائفيّة مكانة تتربّع عليها من أجل أن تبلغ قمّة سُلم السّلطان، ولن تكون للقبليّة مكانة بها تتمكّن من بلوغ التربُّع على قمّة سلم السُّلطان؛ فالطائفية في لبنان وإن استظل تحت مظلتها من استظل فهي لا تشبع حاجة اللبنانيين بدفء الوطن؛ ذلك لأنَّ حبّ الوطن لا يستمدّ إلَّا منه، أمَّا الطائفيَّة فلا يمكن لها أن تملأ أنفس اللبنانيين حبّا إذا ما سادت وحلّت محلّهم على قمّة سلّم السُّلطان.

ولهذا فإنَّ دفء الوطن لا يستمدّ إلَّا منه، والمواطن لا يمكن أن يكون مطمئنا ودافئ القلب إلَّا إذا أصبح جميع المواطنين متساوين فيما لهم وما عليهم تحت مظلة الوطن سيادة الجميع.

وعليه: فإنَّ الشّعب عند ما يقرّر الجلوس تحت مظلة الوطن الواحد سيادة، يستطيع أن يتحدّى الجبابرة والظالمين ويثور على كلّ المسميات التي كانت سائدة في القرن العشرين تحت عناوين النضال وما شابهه من عناوين متلوّنة أكل الدّهر وشرب عليها؛ فيستطيع أن يقرّر اختياراته ويرسم سياساته واستراتيجيَّاته وما يُمكِّنه من صناعة المستقبل المأمول نهضة وسيادة.

ففي القرن العشرين كانت الحزبيَّة من وجهة نظر البعض هي الأداة الفاعلة من تمكين الشّعب من المشاركة في إدارة شؤون البلاد، ممّا جعل رُحى الصِّدام والتطاحن والتآمر تدور بين أبناء الوطن المنقسمين بين أحزاب وطوائف وفئات ومسلمين ومسيحيين وسنّة وشيعة وزيدية واثني عشريّة وأوس وخزرج ومهاجرين وعائدين

من المهجر، وكلَّها مسميات هي أقرب لإيقاد نار الفتنة من إطفائها.

ولأنَّ هذه معطيات فتنة بين أبناء الوطن الواحد، جاء القرن الواحد والعشرون بقوَّة جمعت كلّ هذه المسميات ووضعتها في سلّة المهملات وتظاهر المواطنون في ميادين تحرير الأوطان ليقولوا بصوت واحد للذين عملوا كلّ ما في وسعهم من أجل تكميم أفواه المواطنين كرهًا، ارحلوا خيرا لكم من أن تُرّحّلوا؛ فجاء الرّحيل مصحوبا بلغة جديدة تقول: الوطن للجميع؛ ولذا فلا يحقّ لأحدٍ احتكاره ثروة وسلطة وسيادة، ومن هنا كان التساقط ورقة بعد ورقة.

وفي القرن العشرين كانت الثورات تتفجّر بزعماء وقادة ومفكّرين وأصحاب قضايا، ومن ثمَّ لم يكن متوقَّعا أن تتفجّر ثورة بغير ذلك سوى الانقلابات العسكرية، ولكن اليوم في هذا القرن المليء بالمفاجآت أصبحت الثورة تتفجّر بالمواطنين، وإن تنوّعت معتقداتهم وأديانهم وثقافاتهم وقبائلهم وطوائفهم وأحزابهم وأعرافهم، ولذا فإنَّ ثورات الصفوة مع أنَّها ثورات، إلَّا أنَّها في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقّع قابلة لأن تورّث، أمَّا ثورات الشعوب فلا تورّث، ولهذا فهي الثورات الباقية إلى النِّهاية في ميادين صناعة التَّاريخ واسترداد السِّيادة.

الفتنة الفكرية تسقط السِّيادة:

وفقًا لمنطق اللغة لا توقد نيران الفتن إلَّا بمفتنين، أي: لا نار تُشعل إلَّا ومن ورائها شاعل؛ ولذا فمع أنَّ السِّيادة

قوَّة تماسك وترابط بحزام الكرامة ومظلة الهويَّة، فإنَّ نيران الفتنة إن شبّت فيها أكلت التَّاريخ الذي لا يسترد ثانيّة إلَّا على أيدي صُنَّاعة.

ولذا فالفتنة الوطنيَّة اختلاط أوراق مشوّهة دون القبول بفرزها وتصحيح ما تحمله من مكائد، وهي لهو بالمفاسد مع تسويق المعيبات بين الأقارب والأباعد، حتى تسود الفرقة والبغضاء بين البعض والبعض ويلهو فيما هم فيه متخالفون ومتخاصمون ومتقاتلون، وبها في دائرة الممكن تنتشر المظالم حتى بين الأخوة والأقارب، ولا حُجَّة للكلمات فيها إلَّا بما يؤلم، ويحدث تأزّما.

موقدو نار الفتنة يَسعدون كثيرًا بزيادة الخسائر بين أطرافها ومركزها، والمفتونون في غفلة الألم يتدافعون على تقديم المزيد من الخسائر، والعارفون إن أدخلوا أقدامهم في وحل التأزُّم تغوص في القاع وهم يعتقدون أنّهم في الاتجاه السليم، في الوقت الذي من حولهم الأفعال المؤذية والمميتة يتسابق أهل الفتنة عليها وكأنّها المنقذ.

وهنا فالخلاف لا يكون إلَّا على عدم تفاهم وعدم اتفاق، فبالنسبة لعدم الاتفاق إن لم تُفسح أمامه ميادين الحوار والنقاش والجدل سيكون مؤدِّيا إلى فتنة بين المتخالفين تحفّز إلى المواجهة والاقتتال دون رأفة حتى تحرق الهويّة وتكسر السِّيادة.

ولهذا فالفتنة ترتبط بالمفتونين أكثر من ارتباطها بالمواضيع، أي: ترتبط بالأشخاص والأشياء في ذاتها فلا تكاد تنفصل عنها، ومع أنَّ الفتنة تتجسّد في الأفراد

والجماعات، فإنَّها لم تقتصر عليهم، بل تتعداهم إلى الأشياء التي عليها يفتنون كما هو حال شجرة الزقّوم التي جُعلت فتنة بين البعض والبعض، وهكذا، حتى النّعمة التي هي خير للنَّاس النَّاس عليها يُفتنون: {فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[30].

ومع أنَّ الفتنة ترتبط بالأشخاص ارتباطا مباشرا، فإنَّ ارتباطها لا يزيد عن كونه طمعا، وبخاصّة مع الضعفاء والقاسية قلوبهم الذين يطمعون في كلّ ما من شأنه إغواء، ومن هنا يقعون في الفتنة؛ ولذا فـالفتنة عمياء لا تميّز بين قريب ولا حبيب، ولا حتى صحابي من صحابة رسول الله؛ فالفتنة بين علي بن أبي طالب ومن ولاه، ومعاوية بن أبي سفيان ومن ولاه كانت على أشدّها، والقتلى بينهم من المسلمين في معركة صفّين بالآلاف، ولأنَّها الفتنة فقد لحقت من قبلهما الخليفة عمر بن الخطاب، والخليفة عثمان بن عفّان اللذان قتلا بعظمة نيرانها، ومن قبل هؤلاء جميعًا نشأت الفتنة مع نشأة الخلق البشري فأدت إلى قتل أحد ابني آدم على يدي أخيه ابن أبيه وأمه.

ومع أنَّ الفتنة أشدُّ من القتل، فإنَّ الفتنة تؤدِّي إلى القتل، ومع أنَّها تؤدِّي إلى القتل، فإنَّ القتل قد يكون لشخص بعينه، أمَّا الفتنة فدائرة اتساعها مثل رمي الحجرة في الحوض المائي دائرتها تبدأ صغيرة بحجم الحجرة التي تمّ رميها، ثمّ تتّسع إلى أن تعمّ الحوض المائي بأكمله؛ ولهذا فهي أشد من القتل؛ فعلى سبيل

[30] الزمر 49.

المثال، من يُرمى بحجرة ويُدمغ ويُقتل بها يظل القتل مقصورا على من أصابته الحجرة، حتى ولو كان المرمى بها عن عمدٍ أو غير عمدٍ، وفي كلّ الأحوال إن كان المرمي بها عن قصد؛ فالقصاص العادل كفيل بمعالجة الأمر، وإن كان عن غير عمد فالدّية والتسامح والعفو كفيلة بطي الصفحة المفتوحة. أمَّا الفتنة عندما تنتشر بين النَّاس فهي كالنّار في الهشيم، بدايتها بثّ افتراءات ودسائس وكيد ومكر، ونشر المعيبات بين النَّاس، أمَّا نهايتها فسلب ونهب، وشتم وتنابز بالألفاظ، وإقصاء وعزل سياسي وتقتيل بلا رأفة.

ولأنَّ الفتنة أشدُّ من القتل فإنِ شبّت نيرانها في من شبّت يسجّلها التَّاريخ في صفحاته مآسي وآلام وأوجاع وتأزُّمات على حساب الهويّة والسِّيادة ، حتى تصبح مضرب مثل كما هو حال الفتنة بين داحس والغبراء التي دامت أربعين سنة، وهي فتنة من فتن الجاهلية، وقعت في منطقة نجد بين فرعين من قبيلة غطفان (عبس وذبيان)، وكذلك فتنة بني أصفهان، و فتنة البسوس، وغيرها من الفتن والمعارك الكثيرة التي عاشها وخاضها العرب في الجاهلية وكانت على حساب مكارم الأخلاق والهويّة العربيّة.

ومع أنَّ حركة التَّاريخ متّصلة زمانا، ومنفصلة موضوعا، فإنَّ الفتنة عبر الزَّمن لم تنقطع، ومن ثمَّ مآسيها تتكرّر، ورموزها يتجدّدون؛ فعبد الله ابن سبأ الذي ظهر من اليمن سنة 30هـ مفتنا، هو عبد الله بن سبأ الذي انتقل إلى الحجاز مفتنا، ثمّ انتقل إلى البصرة لذات المهمَّة ومن بعدها الكوفة، ثمّ انتقل فتنة إلى مصر.

والفتنة كونها ترويجا للمعيبات مع كمٍّ من الدّسائس فهي المتلوّنة في كلّ عصر، ففي عصرنا هذا (القرن 21) لِحَافها من طبقتين (دين وسياسة) مرّة بمرة، ومرّة بلا لون، وبهذا التلوّن ستظل الفتنة مستمرّة ليس في بقاء أثرها فقط، وانّما في ممارستها من خلال التعمّد والإصرار على هذا التلوّن، وهكذا هي الأوراق تُخلط، حتى أصبح الدِّين عند البعض لا يزيد عن منطق (حلال لنا وحرام عليهم)؛ ولذا فلا إمكانيَّة لاسترداد الكرامة والسِّيادة ما لم يتم إطفاء نيران الفتنة بمشروعٍ وطني يمكن الجميع من تجاوزها رغبة وإرادة.

الأمن الوطني فكريًّا:

الأمن نُقلة هو الذي تسود العدالة تحت مظلّته سيادة؛ وذلك بتحقق الأمن السياسي، والأمن الاقتصادي، والأمن والاجتماعي، والأمن القضائي؛ ولذا فإنْ لم يتحقّق العدل قيمة مقدّرة بين النَّاس يصبح مطلبا لمن هُم في حاجة إليه، وإن لم يستجاب لمطالب النَّاس فالنَّاس سيقبلون بالمواجهة التي تعيد لهم أمنهم الوطني نُقلة وسيادة.

ومن هنا فمن أجل أمن الوطن وصونه تؤسّس الأجهزة الأمنيَّة، وفي المقابل عندما يستولي على الوطن الدِّكتاتوريون فأوَّل مهمَّة يقدمون عليها هي تحريف مهام وواجبات تلك الأجهزة من مهام وواجبات وطنيَّة ترسّخ السِّيادة، إلى مهام وواجبات رعاية النِّظام؛ ولذا فالفرق كبير بين أمن المواطنين وسيادتهم، وبين أمن رأس نظامه المتحكّم بالقوَّة في مصائر البلاد والعباد.

ولأنَّ أمر الأمن الوطني تحت هذه السِّياسات يتبدّل وينحرف به كرهًا، فالأجهزة الأمنية فيه تصبح وكأنَّها الخاصّة بالحاكم ونظام حكمه، أو الحكومة المحكومة من قِبله، ومن ثمَّ يصبح من يَرضى عنه رأس النظّام وحكومته وأجهزته ينام هانئا، ومن لا يرضى عنه سيكون ميدانا واسعا لممارسة النشاط الأمني، دون أن تجد الأخلاق والقيم والفضائل وحقوق الإنسان مكانا لتحلَّ فيه.

وبما أنَّ الأجهزة الأمنيّة هي العاملة بكلّ نشاط من أجل أن تثبت للحاكم أنَّه وحده يساوي كلّ شيء، ولا أحد غيره يساوي أيّ شيء؛ فهي بدون شكّ ستكون أجهزة قامعة للحرّيَّة، وسيكون التكيُّف هو القيمة السَّائدة على حساب سيادة التوافق نُقلة.

ومن هنا فالأمن نُقلة وسيادة هو أمن تحقيق الحرّيات، التي لا يكون فيها أحد على حساب آخر، وهو الأمن المستمدّ من تلك الأخلاق المستمدّة من سُنن الحياة للأمم والشّعوب صانعة التَّاريخ، ومن ثمّ لن يعد الأمن العسكري هو صاحب المكانة الوحيدة كما كان متربّعا على عرشه تحت مظلّة الدِّكتاتوريين، ففي هذا العصر عصر أحدًاث النُّقلة وترسيخ السِّيادة الوطنيَّة لن يكون الأمن الدِّكتاتوري هو المفردة السَّائدة، بل سيكون الأمن المترتّب على تحقيق الأمن السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثّقافي؛ فالجيوش والاستخبارات التي قلنا عنها في كتابنا: الدِّيمقراطيَّة في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد) الذي أصدرناه في العام 2001م "إنَّها لا تعرف إلَّا المتوقَّع؛ فستكون من غير شكّ هي المعرّضة لغير المتوقّع الذي سيفاجئها بنزيفٍ قد ينذر بعصر النِّهاية في الوقت

والمكان غير المتوقَّعين"[31]، وهذا ما حصل بالتّمام فبعد أنْ كانت كلّ الأجهزة القامعة لحرّيَّة المواطنين في بعض الدّول العربيّة بالذَّات تعتقد بأنَّها الأقوى والأقدر على المواجهة، أثبتت أنَّها الأضعف بعد أنْ قرّرت الشّعوب بلوغ الحلّ، وقبلوا المواجهة ودفع الثّمن من أجل استرداد السِّيادة ، حتّى أسقطت تلك الأجهزة التي لا تميّز بين تحيّة العلم وتحيّة الحكومة.

وعليه: لا يمكن أن يتحقق الأمن وترسّخ السِّيادة ما لم يصبح أمن المواطن في دولة التوافق هو من أمن الوطن، بعد أن كان أمن الوطن من أمن قمّة السّلم السّلطاني؛ فالنَّاس الذين عانوا ويلات العذاب من تلك الأجهزة المكمّمة للأفواه، لا يرون أمنا يتحقّق للوطن والمواطن بدون أن يتحقّق الأمن السياسي، والأمن الاقتصادي، والأمن الاجتماعي، والأمن الثّقافي، والأمن القضائي، ومن ثمّ يأتي الأمن المنظّم لعلاقات الأفراد والجماعات وعلاقات الشّعب بمؤسَّسات الدّولة، وعلاقاته مع الآخرين في بقاع المعمورة.

ولكن إذا انعدم الأمن الوطني فلن تجد الثّقة مكانا لتحلّ فيه، ومن ثمّ تسود العصبيَّة على حساب حقوق المواطنة وحقوق الإنسان بشكلٍ عام.

ومن هنا فالعدالة نُقلة هي التي لا مرجعيّة لها إلَّا الدستور الذي يُقرّه الشَّعب، ومن ثمَّ لا بدّ من كسر تلك القوانين وحتى الدّساتير التي كُتبت باسم الشّعب وهي لم

31 عقيل حسين عقيل، الديمقراطية في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد) ، مالطا، منشورات دار الجأ، 2001، ص 136.

تكن ولادة منه؛ ذلك لأنَّها ولادة بتلقيح غير شرعي (تلقيح الدِّكتاتوريات) المسيئة لممارسة الحريَّة.

ولذا فالحُكم العدل وفقًا لِما يجب هو قضاء لا يُمكّن منه إلَّا عادل، ووفقًا لِما لا يجب قد بلغه من بلغه، فالحكم في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع به تنتظم وتصلح الأحوال والعلاقات السكّانيَّة، أو به تفسد، ومن ثَمَّ فإن صلحت كان العمار والبناء والرّخاء علامات دالّة على وجوه النَّاس وأنفسهم التي تملؤها السكينة والطمأنينة نُقلة، وإن فسدت كان الشقاء والألم علامات دالة على وجوه النَّاس الذين يملئوهم القلق والشَّقاء، وفي كلتا الحالتين كلّ حُكمٍ زائل سواء أكان في مرضاة الله، أم أنَّه كان في غير مرضاته، ولكن الفرق الكبير أنَ لكلٍّ حِسابه ثوابا، أم عقابا.

إذن: للحكم العدل وظيفة تؤدّى بمسئوليَّة عندما تكون المسئوليَّة مناطة من قِبل الذين يتعلّق أمر الحكم بهم دستورا، ولا يؤدّى بها إن كان القاضي منصَّبا لتنفيذ رؤية الحاكم الذي نصَّب نفسه كرهًا.

ومن هنا نقول: إنَّ الحُكم المرضي هو الحُكم العدل، الذي يسود بالحُجَّة التي تعيد الحقّ لأصحابه كلَّما ظُلموا؛ ولذلك فالحُكم إنْ فقد حُجَّته فقد شرعيّته، وإنْ فقد شرعيَّته وجب التغيير.

وعندما يكون الحُكم مَطلبا من النَّاس لا خوف منه، ولكن عندما يكون مطلبا من الذي يريد أن يحكم النَّاس؛ فالخوف والحذر يجب أن يكونا مع وافر الفطنة والانتباه، وإلَّا سيحدث النّدم ويصبح الثّمن المدفوع غاليا.

فالعدل كونه قيمة حميدة فهو المرتبط بالحُكم وهو القيمة التي بها يُفخّم ويُعظّم، أي: إنَّ الحُكم من غير عدل لا يكون إلَّا مفسدة، ولأنَّ الحكم العدل مطلبا شرعيّا فَلِمَ لا يكون سائدا بين النَّاس نُقلة وسيادة؟

وعليه: إذا نظرنا إلى البلدان المتقدّمة علما ومعرفة وسياسة واقتصادا لا نراها إلَّا على النُّقلة؛ إذ لا احتكار للسّلطة، ولا للثروة، ولا للإدارة، والتداول فيها على السّلطة يكفله الدستور، وتوزيع الثروة وكيفيَّة التصرّف يحميها القانون، وتولّي المناصب الإداريّة لا تقتصر على الأقارب وبطانة الظلِّ.

أمَّا في بلدان التخلّف فالأمر غير ذلك، الدستور فيها يُمكّن من الحكم، ثمّ يتمّ التخلّي عنه بالتعديل والتغيير والتحكُّم فيه بقوانين الطوارئ، والثروة في البلد اغتنام فرصة كما أنَّها تهرّب من الضّرائب، وما يمتلكه الحاكم لا يمكن أن يطمع غيره على امتلاكه، بل الحاكم لا يحقّ لأحدٍ أن يسأله، وإن حاول أحد أن يسأل أو يتساءل حتى عن حسن نيّة سيسأل: من أنت؟

هل أنت زوجة الحاكم؟

هل أنت أحد أبنائه؟

هل أنت أحد أفراد عشيرته أو قبيلته؟ ولذا فأنت من تكون حتى تسأل؟

ومن هنا، جاء السُّؤال: من أنتم؟

وعليه: فإنَّ قيام دولة التوافق نُقلة عدالة يُمكّن الشّعب من استيعاب بعضه بعضا، ثمّ يدفعهم وفقًا

لقدراتهم واستعداداتهم ومهاراتهم وتخصصاتهم المتنوّعة تجاه تحقيق أهداف واستراتيجيَّات وخطط مرسومة ومأمولة من قِبلهم رغبة وسيادة.

ولهذا فدولة التوافق نُقلة وسيادة لا بدّ لها وأن تحقّق لمواطنيها العدالة والمساواة القانونيَّة، وفيها تُصان الكرامة والشّرف والعِرض، وفي المقابل بدون التوافق نُقلة الوطن تسوده الفوضى، فتفسد الأخلاق، وتُثبط الهمم، وتتأخّر الدّولة علما وأمنا، واقتصادا وعدلا، ثم تنكسر السِّيادة.

وهكذا الملكيَّة في دولة التوافق نُقلة وسيادة ينبغي أن تكون مُصانة، فالمواطن من حقّه التملّك والتصرّف فيما يمتلك شرعا وقانونا، والدّولة ذات السِّيادة من واجبها ومسؤوليّتها الالتزام بحماية الملكيَّة العامَّة والخاصّة.

وعليه: فإنَّ دولة التوافق نُقلة وسيادة هي دولة نماء واقتصاد متطوّر ومتنوّع من أجل معيشة سعيدة، وحياة صحيّة سليمة معافاة، وبيئة نظيفة خالية من الآفات، وغايتها رعاية المنتج والمستهلك، ورعاية القائمين بالخدمات العامّة والخاصّة، وفي دولة التوافق نُقلة الثروات الطَّبيعيَّة ملك عام فلا يحقّ لأحدٍ استغلالها استغلالا خاصّا على حساب الغير؛ ولذا فاستثمار الملكيّة العامة يجب أن يكون بجهود مشتركة، ووفق خطط واستراتيجيَّات مرسومة ومقرّة، ووفق أهداف قابلة التحقيق وغايات يمكن بلوغها؛ فاستثمار ثروات الوطن وموارده الطَّبيعيَّة المتنوّعة مسئوليَّة من يقبل حمْل المسئوليَّة التوافقيّة التي يكلّف بها من يكلّف، ومن هنا

ينبغي الالتزام برعاية الثروات الطَّبيعيَّة العامّة ورعاية حقوق الأجيال فيها.

وفي دولة التوافق نُقلة وسيادة العمل حقّ لكلّ مواطن قادر، والقضاء على الأميَّة والبطالة واجب تكفله الدّولة وتلتزم به، وهكذا ينبغي أن يكون حقّ التقاعد مكفولا، والتأمين الصّحي حقّ مكفول، والحماية ضدّ مخاطر العمل حقّ مكفول، وتوافر معطيات السَّلامة في العمل حقّ مكفول، والإجازات حقّ مكفول تنظّمه القوانين المستمدّة من الدّستور الصّادر من الشّعب نُقلة وسيادة.

والتقاضي عادلة ينبغي أنْ يكون حقّا مكفولا؛ إذ لا وجود في دولة النُّقلة للمحاكم الاستثنائيّة التي تحكم على من تحكم بغير حقّ، كما كان الأمر في تلك السّنين والأعوام التي فيها تمكّن من تمكّن من القفز على سُدد الحكم فحكم بلا عدالة.

وهنا فدولة التوافق والسِّيادة هي المسؤولة عن رعاية القيم والفضائل، والأخلاق الكريمة، والآداب والفنون، والتراث الثقافي والحضاري للشّعب، كما أنّها المسؤولة عن رعاية التعليم وجودته، والرّعاية الصحيّة وجودتها، ورعاية الأسرة بما يمكّن من احترام وتقدير واعتبار للقيم والأخلاق، كما أنَّ دولة التوافق سيادة هي المسؤولة عن رعاية مكوّنات المجتمع المدني وكافلة لحق التعبير مع حرّيَّة تامّة للصّحافة والإعلام، والتأليف، والطّباعة والنشر، وكلّ ذلك وفق ما يضمنه الدّستور والقانون المستمدّ منه، مع احترام حقّ التظاهر المدني الذي يعدّ وسيلة من

وسائل التعبير المكفولة، ممّا يستدعي منح المتظاهرين رُخصا بعد معرفة المستهدف قانونا.

ومن ثمّ يجب تقدير منظمات المجتمع المدني، وتقدير النقابات المؤسّسة على مواثيق شرف مهني وحرفي، التي آراؤها تُثري سيادة المواطن، وتُسهم في تطويره علما ومعرفة وثقافة وسياسة واقتصادا.

والحريّة في دولة التوافق الوطني مصانة، ولحياة المواطن حُرمة خاصّة، وللحرّيَّة الفكريَّة مداها، ولحرية الرّأي مداه؛ ولذا فمن حقّ المواطن أن يُعبّر عن رأيه قولا وكتابة وبحثًا ونشرا؛ فالعلوم والفنون والآداب تُعدّ معطيات رئيسة للنهوض نُقلة من أجل تحقيق الرُّقي والأبدَاع، ومن هنا وجب على الدّولة رعاية علمائها وأُدبائها ومبدعيها، ولا يجوز التصنّت على المواطنين وتقييد حرّياتهم المكفولة دستورا وقانونا، ولا اعتداء على أيّ مواطن بغير اعتداء منه؛ فالشّريعة والدّستور والقانون هي الحُجَّة وهي القوَّة الفاصلة أمام القضاء العادل بين المواطنين سيادة.

ولأنَ الحرّيَّة على رأس القيم الأخلاقيَّة للإنسان أينما كان فلا شكّ أنَها بالتمام هي على رأس القيم في دولة التوافق نُقلة؛ فالمواطن فيها ينبغي أن يكون حرّا في إقامته، وسفره وترحاله، فلا يحقّ لأحدٍ أن يؤخّره عن سفره، أو يمنعه من عودته لوطنه، أو يُقلق إقامته في منزله، أو يضايقه في حركته وسكونه، وبخاصّة عندما تكون حركته وسكونه عن مسئوليَّة أخلاقيَّة وشرعيَّة وقانونيَّة.

إذن: كفالة دولة التوافق نُقلة هي كفالة التزام بتأديّة المسئوليَّة المقنّنة والمنظّمة لشئون النَّاس، ولها من اللوائح والقوانين المستمدّة من الدّستور ما يكفي لتنظيم مجتمع الدّولة الذي اختار التوافق نُقلة من بعد تكيّف ساد لسنين تحت وطأة الضرورة والإكراه الذي ساد بالهراوات الموالية للحاكم على حساب الولاء للوطن وسيادة الشّعب.

ومن ثمّ صون الكرامة في دولة التوافق حقّا لكلّ مواطنٍ كما أنَّها حقّ لكلّ إنسان؛ فاحترام الآخرين وتقديرهم واعتبار كرامتهم هو ما يخلق مجتمع دولة التوافق سيادة؛ فالإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم، لا ينبغي أن يهان، أو يُذلّ، أو يقلل من شأنه، بل شخصيَّته واجبة الصّون شرعا وإنسانيَّة ودستورا في دولة التوافق ذات السِّيادة

ولذا ينبغي أن يكون التعليم في دولة التوافق نُقلة مكفولا للجميع، حتى لا تجد الأميَّة مكانا لها بين المواطنين، ولأهميَّة التعليم في بناء الإنسان وبناء الوطن وترسيخ سيادته أو استردادها ، ينبغي أنّ يكون خاضعا لمعايير الجودة المقدّرة على المستوى الدّاخلي والخارجي، ولا ينبغي أن يقتصر التعليم على حاجة سوق العمل فقط، بل ينبغي أن يمتدّ إلى كلّ ما من شأنه أنْ يُحدث النُّقلة، ويُحدث التغيير إلى الأنفع والأجود والأهم، حتى تترسّخ السِّيادة الوطنيَّة التي تحقق رفعة المواطن أينما حلّ إقامة أو تنقلا[32].

---

[32] عقيل حسين عقيل، السياسة بين خلاف واختلاف، الزعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة: 2013م، ص 91 – 320.

العقل يصنع الأمل ويمكن من المأمول:

لا مجال لأملٍ إلَّا في دائرة الممكن، ولا إمكانيَّة لنيل مأمولٍ إلَّا فيها، وهذه ما دون المستحيل والمعجز، حتى وإن كان المأمول المتحقّق نيله خارقة من الخوارق؛ فالخوارق لا تخرج عن دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع. أي: إنَّ الخوارقُ هي ولّادة ما لم يكن بالحسبان، وبها يتمّ تجاوز المألوف والمحتمل في دائرة الممكن غير المتوقَّع من خلال تحدِّي العقل البشري للكوابح والمعيقات، وهي نتاج المقدرة الذهنيَّة ذات الرُّؤية الثَّاقبة للمشاهد والملاحظ بغاية التعرّف عليه وعلى القوانين التي هو عليها، وعلى الكيفيَّة التي بها خُلق حتى التمكّن من معرفة المستحيل مستحيلا.

فالخوارق تُصنع وتُبدع كونها على غير سابقة معروفة، فمن بلغها اختراقا (تجاوز المألوف) وأظهر ما كان مجهولا، أو مختفيا لحيّز المشاهدة والملاحظة فيضيف جديدًا غير متوقَّع لميادين المعرفة الواسعة. فالخوارق لو لم تكن ممكنة ما كانت، ولأنَّها في دائرة الممكن فهي ستتولّد خارقة ومن بعدها خوارق، وما الاستغراب الذي يصاحبها أو المفاجآت التي تلاحق وجودها إلَّا بسبب كونها لم تكن متوقَّعة.

والخوارق تُصنع؛ لأنَّها تأتي عن غير قاعدة مألوفة، وعن غير معتاد ولا متوقّع، ممّا يجعل علامات الاستغراب والاستفهام والتعجّب توضع عليها، وعلى من اكتشفها أو جاء بها.

أمَّا الصّنع فهو إظهار ما لم يكن ظاهرا، أو إيجاد ما لم يكن بين اليدين موجودا، أو إظهار الشَّيء الظَّاهر على غير ظهوره أبدًاعا، أو استخراج الشَّيء من الشَّيء بطريقة أو أسلوب غير معتادٍ ولا مألوفٍ.

والصّنع أن يتمّ الإتيان بما لم يسبق لأحدٍ الإتيان به، وهو نتاج التفكير المفتوح؛ إذ لا سقف يحدّه ولا موانع تكبحه، أمَّا الخارقة فهي بلوغ ما لم يكن متوقَّعا، والخوارق أعمال غير معجزة، أي: إنّها الممكِّنة، ولكنّها غير عامّة؛ فهي تحتاج إلى مقدرة عقليَّة تتجاوز ما يمكن تدبُّره إلى ما يمكن بلوغه؛ كونه لم يكن مستحيلا ولا معجزا. والخارقة تقود أصحابها فكرًا إلى الأبدَاع الممكّن من معرفة ما كان مستغربا مع أنّ آمله غير ذلك؛ كونه قد صاغ له تساؤلات، وإن كانت بالنِّسبة إليه على غير عادة.

وعليه فالإنسان مؤهّل للارتقاء أملًا وحسّا؛ فهو يتذكّر؛ ليتّعظ ويُصلح، ويتدبُّر؛ ليبني وينتج، ويفكّر؛ لإيجاد خارقة بها يصنع مستقبلا راقيا، يَرتق الأرض بالسّماء.

ولأنَّ صُنع الخوارق لم يكن مستحيلا فَلِمَ لا تُصنع باستمرار تحدِّيا للعقل بملكاته العقليَّة؟ فالعقل دائمًا مَكمن الخوارق، فمن بلغ عقله عقلًا عن غير توقّع بلغ المعجز إعجازا، ومن بقي في دائرة المتوقَّع فلا إمكانيَّة لبلوغ الخوارق التي في النِّهاية لا تكون إلَّا في دائرة الممكن غير المتوقَّع.

ومن ثمّ كان المستحيل كونا متسعا ومتسارعا في تمدّده، وكان الأمل يلاحقه بغاية معرفته مأمولا، ومع ذلك لا زال قاصرا عن معرفته على الرُّغم من الأمل العريض.

فالكون لو لم يكن عملًا مستحيلا ما كان انفجاره أو فتقه عظيما، ومع أنَ المستحيل شيء يتحقّق، لكنّه لا يوصف بشيء، أي: لو لم يكن المستحيل شيئًا ما تحدّثنا عنه، ولأنَّه شيء ونتحدث عنه فهو يشغلنا حيرة تدفعنا تجاه معرفة مَن وراءه؛ فنحن نقف عاجزين أمام توصيف المستحيل الذي مهما تدبُّرنا أمره؛ فليس لنا إلَّا التسليم، الذي يقرّ بوجود واجد له، ولا يكون إلَّا أعظم منه؛ ومن ثمّ؛ فلا يوجد شيء، أو يخلق لو لم يكن من ورائه خالق[33].

المستقبل ليس ذلك الزَّمن المنتظر في ذاته، بل هو ذلك المأمول الذي لا يتحقّق إلَّا فيه؛ ولهذا فالمنتظرون للزّمن في ذاته لا شكَّ أنّ ما ينتظرونه سيكون متحقّقا، ولكن بلا آمال؛ لأنَّه الزَّمن المنتظر، وهذا الذي نحن نخشاه وفي شأنه نقول:

لا ينبغي أن تنتظروا الزَّمن، بل عليكم بانتظار ما تأملون أن يكون تتويجا لما تبدلونه من جهد تكون ثماره إنتاجا بين أيديكم في الزَّمن المنتظر (المستقبل).

المستقبل زمن لم يأت بعد، وهو الذي ترسم الخطط وتوضع الاستراتيجيَّات من أجل بلوغه عملًا وانتاجًا ونهضة وتقدّما، ممّا يجعل الزَّمن ليس غاية، بل الغاية تفادي ما يمكن أن يكون فيه حاصلًا سلبيًّا.

والمستقبل غير منزويا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما ويمثّلان له قاعدة التأسيس لكلِّ

---

[33] عقيل حسين عقيل، الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (كيف تصنع أملًا)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م، ص 114 – 1157.

الافتراضات التي من شأنها أن تكون مساهمة وفاعلة في صناعة المستقبل المأمول ارتقاء، وهو الذي بدونه لا يجد الأمل حلّا.

ولأجل النّهوض ارتقاء، وجب المزيد من البحث العلمي الممكِّن من المعرفة الواعية التي بدورها تُمكّن من الإسراع في طي الهوة بين المأمول والأمل، وذلك بما يطوي مشاعر الخوف طمأنينة، ويخلّص من الحيرة حلّا بعد تأزّم؛ فالبحث العلمي ارتقاء يستوجب أسلوبا مرنا، وطريقة تستوعب التَّاريخ تجربة ومنهجًا ووسيلة.

ولأنَ الإنسان قد خُلق في أحسن تقويم؛ فليس له بدّ إلَّا المحافظة على حُسن تقويمه، وهذه قاعدة، ولكن إن انحدر استثناء، وبأيّة علّة؛ فليس له إلَّا النّهوض، وهذه قاعدة أيضًا؛ والإنسان بين قاعدة واستثناء لا ييأس؛ ولهذا وجب العمل الذي يمكّن من بلوغ الغايات العظام التي يأملها؛ فالإنسان متى ما فقد الأمل فقد المستقبل المنقذ.

ولأنَ الانحدار بين قاعدتين: (حُسن الخَلق، وضرورة الارتقاء)؛ فهو باق مادمنا باقين، وله الثلث في حياتنا من المورث انحدارا، ولهذا؛ فلا داعي للقلق بما أنّنا نرث الثلثين (خَلقا وارتقاء)، ولكن هذا لا يعني: أن نظل كمن ترك له أبوه إرثا ولم يستثمره؛ فانتهى صفرا.

ولأنَ لكلِّ قاعدة شذوذ؛ فلا إمكانيَّة لبلوغ الحلّ كمالا؛ فتلك الجهود عبر التَّاريخ، وهذه الجهود،

ستتلاقح ارتقاء بغاية إنتاج الفِكْر الممكِّن من إشباع الحاجات المتطوّرة.

ولأنَّ الارتقاء رغبة وأمل؛ فسيظل أملًا يسعى في الزَّمن المستقبل نهوضا وهو لا يُمكن أن يلاحق إلَّا بالعمل إنتاجا واعمارا وبناء وبحثًا علميّا، مع الاهتمام بالقيم التي تنالُ التقدير من النَّاس.

إنَّ التفكّر في المستقبل يمثل الامتداد الطبيعي للحياة من ماضيها وحاضرها، وله أهميَّة كبيرة في البناء المرتقب الذي يكون من ورائه امتدادات مختلفة تتّجه بحسب الاستراتيجيَّة التي وضعت له اللبنات الأولى، فالمستقبل يعدّ الأرضية الجديدة التي يُؤسّس من خلالها كلّ ما هو مطلوب ضمن دائرة المتوقّع وغير المتوقَّع، وبذلك يكون التفكّر عنصرا مهمّا في خلق مستقبل موافق لكلِّ التوجهات التي تسعى إلى المضي قدّما نحو التفاضل والوصول إلى الدّرجة التي تكون إخافتها حاصلة، ودون وجود مخيف يمكن أن يماثلها أو أن يكون ندّا لها.

ولا يكون التفكّر منزويا عن الماضي والحاضر، بل هو مرتبط بهما ويمثّلان له قاعدة للتأسيس لكلِّ الافتراضات التي من شأنها أن تكون مساهمة وفاعلة في المستقبل؛ فالمستقبل لا يمكن بناؤه دون النّظر إلى امتداداته الحاصلة التي يكون الانطلاق منها حاصلًا في كلّ التوجهات، وتكون التوجهات المختلفة منتمية إلى جذور تمدّها بما يسمح لها بالسعي إلى إيجاد حلول واضحة المعالم، فلا يكون هنا أيِّ انكفاء،

بل تكون الأمور عامّة سائرة نحو تشابك منظم يكون من ورائه وجود تبعات تبحث لها عن رؤى تفاعلية تثري التفكّر وتمنحه أبعادا مختلفة ومهمَّة، وهنا يكون الإيضاح سمة مطلوبة كي يكون الاتساع المرافق ملبّيًا للإدراكات الحاصلة، فتحصل بذلك شمولية مطلوبة تطرح التواصل الذي يكون من ورائه تحقّق التفكّر.

ومع ذلك فالمستقبل يكتنفه في بعض الأحيان غموضا معيّنا يسير في مدارات قد تبدو للوهلة الأولى غير منضبطة وفق الرُّؤية المطروحة، وهنا يكون الاستشراف حالة ملبّية للكثير من الطُّموحات وحتى التداعيات التي تخلف انفراجا وان كان وقتيا إلَّا أنّه قد يكون سببًا في حلّ الكثير من المتعلقات المفترضة، كما أنّ التشكيل العام لهذه الرّؤى يكون مطويّا خلف إزاحات دائمة تريد أن تجد لها مكانا بين الحضور الحاصل، إلَّا أنَّ مكمنها قد لا يبدو واضحا نتيجة البعثرة التي تحصل في بعض الأحيان، وهنا تنبري لنا مسألة مهمَّة ألا وهي التنظيم المطلوب ضمن هذه الصيرورة، إذ يحتّم المكوث عند هذا التنظيم وجعله منهجًا يكمن فيه التحقّق المطلوب، ويكون الحذر حاضرًا في هذا التنظيم بطرق متباينة؛ فالحذر يقف عند كلّ النقاط المهمَّة التي يكون من ورائها الوصول إلى الامتدادات المستقبليَّة المطلوبة؛ فتكون الآليات المطروحة تسير وفق اتجاه يكتنفه الحذر وفق كلّ التفصيلات المتاحة، وهذا الأمر يسهم بشكلّ أو بآخر في إيجاد نتائج واضحة المعالم يُرى فيها معالم الحذر في كافة جوانبها؛ فيكون الظهور المتحقّق وفق هذا

التفكّر ملبيا للبداية التي طرحت كلّ ما من شأنه كي يصل التفكّر إلى هذه المرحلة وما بعدها ارتقاء.

وينفتح الحذر على كلّ الأزمنة، وهذا من باب الاتساع المطلوب كي تكون الصَّورة المطلوبة واضحة وملبّية لكلِّ التغايرات التي يمكن أن تحصل فالارتباط المطلوب يغرس في كلّ خطوة من الخطوات اتكاءات جديدة يكون مبعثها متزامنا مع التفصيلات التي يكمن فيها الحذر من أجل تحقيق مستقبل أفضل، وهذا يسير بوتيرة إفضائية تتحكّم بشكلّ ينمّ عن وجود ارتباط فعلي بين هذه الامتدادات الثلاث، ولأنَّ النِّهاية مفتوحة سيبقى الحذر مفتوحا ولا يتقيد بأيّ قيد يمكن أن يكفّه عن تحقيق فاعليته؛ فالنِّهاية المفتوحة تكون حافزًا على خلق استمراريَّة في البحث تتّجه دائمًا نحو شمولية يتّسع مداها كي تكون متجاوزة لكلِّ الأساليب التقليدية التي تكتفي بالبقاء عند عتبات تجد أنّها تمثّل النِّهاية التي يجب أن تكون، وهذا الأمر بطبيعته مخالفا للحياة التي نعيشها؛ فهي قائمة على استنهاض مستمر، وبحث مستمر والأمل لا يفارق، فالتوقّف أو الانكفاء سمة تشير إلى وجود خلخلة وبعثرة حقيقيَّة في التفكير، لأنَّ البقاء ضمن هذه الأطر يخلق ارتباكا وفوضى معرفيَّة لا تكون نتائجها محمودة أبدًا، وفي المقابل تفطين الذَّاكرة لاحتواء ما يُنتج عبر الزَّمن ماضيا وحاضرًا، يقود بسلام إلى تطلّع مأمول لا يتحقّق إلَّا بالعمل في دائرة الممكن مستقبلا.

ونحن إذ نشير إلى هذا التعالق فهو من باب أنّ التفكّر لا يمكن له أن يكون سائرا بالاتجاه الصحيح

دون أن تكون له قاعدة يتكأ عليها، تمدّه بكلّ ما يمنحه من امتدادات مختلفة سواء أكانت نظريَّة أم عمليَّة؛ فتوجه الحذر يكون متماشِيا مع هذه الامتدادات كونها تتوافق معه فيسمح لها بالمثول عند أيّ ارتكاز تريده.

وعليه يكون التفكّر واقعا ضمن دوائر متعدّدة تكون حاضنة له، فتمنحه كلّ ما من شأنه أن يحقّقه، وإن كان الأمر ضمن دفعات تتابعية إلاّ أنّه لا يخلو من إرهاصات قد تكون متواجدة بشكلّ لا يكون من ورائها انزياحات كبيرة، وهنا يكون الحذر من أجل صناعة المستقبل المأمول متغلغلا في كلّ الجوانب التي تريد أن تقف عند أعتاب كلّ التشكيلات التي يكون من ورائها البناء المطلوب، لأنّ هذه الصِفة بلزوميتها تواكب الحاصل الذي لا يسير معها، بل هي تسير معه، وهنا تكون عظمة المرافقة التي تمنح التفكّر أبعادا مهمَّة تساهم بفاعلية كبيرة في خلق مستقبل غير مسبوق، لأنَّ السّابق متحقّق بكلّ ما فيه أمام المستقبل الذي يسعى نحو التفاضل والتمايز، فتتحقّق بذلك الافتراقات التي تخلق بناءا مغايرا مبنيّا على تشعبات استبطانيَّة وجدت في الماضي والحاضر البداية التي لا يمكن أن تكون ثابتة، بل هي موجّه نحو إيجاد البدائل أو إيجاد الجديد الذي يكمن فيه التغاير والتباعد عن نقاط الالتقاء التي تكون ملبّية للتساوي الذي يجب ألاّ يكون.

إنَّ التفكّر في المستقبل يسير بالفكر الإنساني نحو إيجاد بدائل يكمن فيها النّهوض المأمول الذي يمنح

النَّاس جميعًا حياة أفضل، لكن هذا الأمر لا يتحقّق للجميع كونه يرتبط بأخذ الحيطة والحذر؛ فالمخاوف بسمتها الإيجابيَّة المفقودة يكون الرّكون إليها متفاوتا، وهذا ناتج عن الإدراك غير الواعي بالحقيقة الموجودة؛ فالخوف لم يكن سلبيًّا على مدار الوجود الإنساني، بل كان حافزًا مهمّا في المعالجة والوقاية ودرء المخاطر في أوقات مختلفة؛ فهو يشير دائمًا إلى وجود خروقات طبيعيَّة وغير طبيعيَّة تخرج عن نطاق المتعارف أو الطبيعي الذي يجب أن يكون؛ فهو بذلك منبّه من الدّرجة التي يكون استشعاره باعثًا على إيجاد كلّ ما من شأنه أن يدفع بالمتغيرات الحاصلة التي ظهرت منها المخاطر نحو حدود جديدة يكمن فيها الدرء المنشود من أجل بلوغ مستقبل أنفع، وهذا الحال حين يكون تحقّقه مستمرا يمنح الإنسان وعيًا مستمرا أيضًا، ذلك أنَّ تكرار المنبهات يحيل إلى زيادة في الوعي المتحقّق؛ فيكون الخزين العام منساقا نحو هذه الزيادة التي يُرى فيها إضافات جديدة على المساحة الفكريَّة المطروحة؛ فيكون الاغتناء الفكري قد وجد له تمويلا مستمرا يمنحه ما يشاء، وبتفصيلات تلهمه المتابعة التي يجد فيها كلّ ما هو جديد وكلّ ما هو بديل للحاصل[34].

وعليه:

لا يمكن أن يُصنع المستقبل إلَّا بالتفكّر، ولهذا فعلينا به تخطيطا، مع السّماح للبحاث بالتفكّر حتى

[34] عقيل حسين عقيل، الخوف وآفاق المستقبل، ص 131 ـ 135.

بلوغ الخوارق، وبلوغ المعرفة التي تمكّن من معرفة المستحيل مستحيلا، ومن معرفة المعجز معجزا، ومن معرفة الممكن ممكنا حتى وإن كان غير متوقَّعا، ولهذا فصناعة المستقبل المأمول تمكّن من معرفة المجهول وكشف خفاياه.

ولأنَّ الحياة من أجل المستقبل؛ فنحن بني آدم نتعلّم، ونبحث عن فرص عمل، ونتزوج، ونصادق من يصادقنا، وعندما نتعرّض لسوء التكيُّف قد نُطلق عند الضّرورة، وعندما تقوى علاقاتنا نُشرّع، ونسنّ القوانين والنّظم، ونحدّد الأهداف ونرسم الخطط، ونتطلّع بأمل إلى المستقبل القريب والبعيد، ولهذا نصوم ونصلي من أجل نيل المستقبل جنَّة.

ولذا فالقاعدة هي:

العيش من أجل المستقبل.

والاستثناء هو:

العيش من أجل الآن.

استنهاض الخوف صناعة للمستقبل:

يكمن الخوف في النَّفس الإنسانيَّة، لكن هذا الكمون لا يكون مستديما أو حالة تكون أشبه بالمكوث الذي لا يرى بزوغه أبدًا، ذلك أنَّ المثيرات الخارجيَّة تسعى دائمًا إلى يقظته في تشكيلات متعدّدة ومتنوّعة، فيكون ظهور الخوف ضمن حالة متفاوتة بحسب المثير الذي يستفّزه، هذا الأمر يكون تحقّقه ضمن آنيّة مفترضة يكون حصولها بعد امتدادات

واضحة المعالم، يُرى فيها كلّ التمركزَات المطلوبة، والتي يكون من بعدها التوجّه العلاجي قائم من خلال مثول الخوف وراء كلّ ما يحصل.

إنَّ هذا الانفتاح في المعالجة قائم على آنيّة تكون محدّدة الحدود واضحة التفاصيل، ومن الممكن الوقوف على كلِّ ما من شأنه أن يكون الحلّ فيه ظاهرا سواء أكان مادِّيًّا أم معنويًّا؛ فتكون المعالجة سريعة، لكنّها لا تخلو من أخطاء متفاوتة قد تكون قليلة في بعض الأحيان، إلَّا أنَّها قد تتّسع في أحيانًا أخرى لتصل الأمور في بعضها إلى وجود خروقات غير منطقيَّة، تجعل الكثير من الحلول في المستقبل في مهبّ الرّيح، هذه الآنيّة ساهمت بشكل أو بآخر في استنهاض الخوف من خلال رسم حجم المخاطر وتبيان ما فيها من تفصيلات تعينه على إيجاد حلول يكون من خلالها الوصول إلى نقاط التقاء فعليّة تكسب الزَّمن أوَّلا، وتخرج الوضع الحرج أو الخطر إلى وضع آخر أفضل ثانيا، إلَّا أنَّ الوضع الأفضل يكون وفق مقاييس غير ثابتة، إذ تكون هذه المقاييس تابعة إلى مجمل العوامل التي التفّت حول الخوف، ومنحته هذا الاستنهاض الذي كان سببًا فاعلا في الوصول إلى النتيجة الحالية التي هي في كلّ الأحوال منقادة للبداية الأولى التي كانت قاعدة الانطلاق.

يسير الخوف باتجاهات واضحة المعالم حين يكون الاستنهاض مبنيّا على أسس علميَّة، تتّسع مراحلها نحو إيجاد توافقات بين الحدود المفتوحة التي لا يُرى فيها في كثير من الأحيان إلاّ ابتعادا عن

المركز المفترض، هذا المركز يكون من خلاله طرح ما يمكن طرحه واعداد ما يمكن إعداده، ولهذا لا تكون البداية مفتعلةً بأيِّ حال من الأحوال، لأنَّ الافتعال لا يولِّد في المستقبلِ إلَّا أخطاء جسيمة، ونحن إذ نرى في البداية أنّها يجب أن تكون مبنيّة على اتساعات علميَّة مختلفة تلملم المطروح وتدخله في سياقات حقيقيَّة وافتراضيَّة، فتمنحه بذلك مديات متباينة يكون على أساسها الوصول إلى الاتكاءات التي يكون من ورائها الوقوف على الحلّ، والذي يكون من ورائه تفادي المخاطر التي يمكن أن تحدق بالإنسان.

إنَّ السّير خلف طروحات ثابتة يجعل من استنهاض الخوف أداة ناقصة الفاعلية؛ ذلك أن التغيُّر المستمر في الحياة يخلق حالة من التصحيح المستمر لكلِّ ثوابت الحياة، وهذا بطبيعة الحلّ يوجد ارتماءات متعدِّدة تحاول أن تجد لها ما يكفل بقاءها ضمن دائرة الاستنهاض؛ فتكون الأمور ضمن هذه النسقيَّة باطلة وغير قابلة لردع المخاطر؛ فتقلبات الحياة جعلت الكثير من الأمور تكون ضمن انزواءات لم يتوقّع لها أن تكون فيها؛ فكانت وجودا غير مرغوب فيه في كثير من المواقف، وهنا تنبري الأمور ضمن استمداديَّة جديدة؛ فتحاول أن تجد ما يمنحها صيرورة البقاء ضمن دوائر جديدة تسهم من خلالها في إيجاد حلول واضحة، وان كانت استعراضية إلَّا أنَّها ملبية لبعض الإرهاصات الحاصلة التي تبدو غير خطره.

وتتحدّد الحياة من خلال تقسيم يطرح كلّ ما من شأنه أن يكون سببًا في استنهاض الخوف، ذلك أنَّ

المخاطر أصبحت ضمن مدارك الإنسان المختلفة؛ فيلتفّ حولها استشعارات متباينة تكون حافلة بأسباب البحث عن كلِّ النقاط التي يكون من ورائها الوقوف على الصّورة الافتراضيّة التي ستكون في المستقبل، وهذا يشمل ما يسمى بصناعة المستقبل؛ فالمستقبل في حقيقته غير متحقّق، إلّا أنّه يمكن أن يتحقّق من خلال رسمه بتقنية خاضعة لكلِّ ما يساهم في تحقّيقه، وفي هذا المقام يتراءى لنا مصطلح المستحيل الذي يمكن أن يكون باعثًا لتوقفات كبيرة يكون من بعدها تحقّق المخاطر، ومن ثمَّ الانزواء عن إيجاد حلول تكون ناجعة في كلّ المقاييس ولكي نبدِّد هذا المصطلح ولو آنيّا علينا أن نلجأ إلى المتوقَّع وغير المتوقَّع كي نسلب منهما الحلول التي يمكن أن تكون باعثة على إيجاد أرضية صلبة وواضحة المعالم، ويكون من ورائها خلق استنهاض للخوف يكون من ورائه صناعة المستقبل بالكيفيَّة المفترضة والمرادة.

المتوقَّع يسير في دائرة المتحقّق الذي يكون وجوده وصداه حاضرًا في المنظور وغيره، وهذا بطبيعته يخلق حالة واضحة من وجود ثوابت يكون حضورها ممثلًا لجانب مهم من جوانب صناعة المستقبل؛ فيكون هذا الحضور استمرارا لهذه الصناعة حتى يمكن القول أنَّها تدخل حقل البديهيات التي يكون وجودها لا بديل عنه.

أمَّا غير المتوقَّع؛ فيكون خاضعا لنظرة استشرافيَّة باحثة عن كلّ ما من شأنه أن يكون مؤسَّسا بطريقة أو بأخرى لصناعة مستقبل مطلوب وفي المواصفات

الافتراضيَّة التي وضعت عند بداية الاستنهاض، ولعلَّ البداية قد تكون مفتعلة في بعض جوانبها نتيجة التحسُّب المبالغ فيه إلَّا أنَّه بمرور الزَّمن قد يكون هذا الافتعال ممثلًا لكثير من الوقائع التي يمكن أن يكون لها شأنٌ آخر، فلا يكون هناك استبعاد لأيِّ استنهاض وان كان بعيدا عن السمات المتواجدة ضمن الدَّائرة الظنيّة الحاضرة في كلِّ حركة متّجهة نحو الاستنهاض.

عليه يكون استنهاض الخوف باعثًا لإيجاد قواعد جديدة تكون ملبِّية لما يمكن أن يكون بديلا عن الماضي، ودون الركون إلى كلِّ ما من شأنه أن يلغي التوجّه نحو المستقبل بافتراضات بالية وعقيمة لم تنتج إلَّا ما يُعطّل الحياة ويجعلها تمرّ بأزمات متوالية.

إنَّ الحياة في كثير من تفاصيلها هي مبنيّة على استنهاض الخوف لصناعة مستقبل يكمن فيه الأمان المطلوب في كلِّ جوانبه؛ فمن ذلك نجد أنَّ المقررات التعليميَّة إن لم تكن مصاغة بمنهجيَّة استنهاض الخوف لدى المعلمين والمتعلمين؛ فإنَّها ستفشل في تحقيق الغايات المرجوة لصناعة المستقبل، فإعداد كمّ من المعلومات الملبّية لاستنهاض الخوف، يكون موافقا لما يمكن أن يكون منجزا مستقبليًا، فالمقررات إنْ لم يراع في صياغتها استنهاض الخوف في أنفس المتعلمين لا يمكن لهؤلاء المتعلمين صناعة المستقبل المأمول منهم، حتى يكونوا من المواكبين لحركات التغيّر والتقدّم التي هي دائمًا في حالة تطوّر من عصر إلى عصر.

ولذا فإنَّ الخوف من أعظم النعم التي تحفِّز الإنسان وتدفعه إلى كلّ ما من شأنه أن يجنِّبه المخاطر والآلام والمظالم، ويجنِّبه الحاجة والعوز، ويُمكِّنه من بلوغ مشبعاتها والإقدام على تطورها وتطويرها، حتى المناهج التي رأينا فيها أن تكون ملبِّية لاستنهاض الخوف، هي متغيِّرة ومتبدِّلة، لأنَّ الخوف أيضًا متغيّر ومتبدّل، وهنا يكون النَّاس ضمن اتجاهين:

الاتجاه الأوَّل: يكون منهم متتبِّعا لكلِّ ما يسهم في استنهاض الخوف من أجل صناعة المستقبل؛ فتكون حركتهم واعية وتسير في مدارات تلبّي ما يطمحون في الوصول إليه؛ فتكون أدواتهم خاضعة لكلِّ ما يصل بهم إلى التحقُّق المراد، حتى ردود أفعالهم تكون منتمية إلى أرضية واقعيَّة التشكيل، فتمنحهم بعد ذلك حلولا صحيحة كما يريدونها في كثير من الأحيان.

الاتجاه الثَّاني: المتفرجون الذين يراقبون كلّ ما يجري، فلا يحركون ساكنا وسيظلون يتفرجون ما لم يعرفوا عن يقين أنّ استنهاض الخوف ضرورة للفرد والجماعة والمجتمع، هذه المعرفة لا تأتي من فراغ، بل يكون السعي من أجل معرفتها هو مطلب مهم يمنحهم فيما بعد هذا المطلب نتائج غير متوقعة على كافة الأصعدة التي كان ينظر إليها أنَّها غير مهمَّة.

إذن من يستنهض الخوف في نفسه يتقدّم ويتطوّر حتى يصل به الأمر إلى أن يغزو الفضاء وهو يصنع المستقبل، وفي المستقبل أيضًا سيغزو ما لم نعرفه الآن في دائرة غير المتوقَّع، ولهذا من يعلم بذلك لن

يُفاجأ، أمَّا الذين لا يعلمون فبالضرورة ستكون المفاجأة في أنفسهم عظيمة ويا ليتها تكون موجودة.

العقل نُقلةُ السَّماء إلى الأرض:

كانت العلاقة بين السَّماء والأرض علاقة رسالات من الخالق تعالى إلى المخلوق، من خلال اصطفاء الأنبياء والرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام، وتكليفهم بالنبأ والبلاغ المبين، دعوة، وهداية، وتبشيرا، وأمرا، ونهيا، وتحريضا.

إنَّها مرحلة التعلُّم، والمعرفة الممكِّنة من التمييز بين ما يجب طاعة، وما لا يجب طاعة: (التمييز بين الحقِّ، والباطل)، وبين ما يؤخذ الرَّأي فيه وما لا يؤخذ، وبين المحرَّم والمجرَّم؛ فمرحلة التعلُّم، والمعرفة هي: مرحلة التعلُّم، والتعرُّف على ما لم يسبق للإنسان أنْ عرفه، وهو: الذي لا يعلمه إلَّا الله تعالى. إنَّها المرحلة النُّقلة من الظُّلمة إلى النُّور، ومن الإباحة المطلقة إلى التقييد المشروط: (مرحلة اختبار العقل)، مع ضبط النَّفس التي لا يرضى الله عنها إلَّا طائعة منضبطة، ومن ثمَّ تُرك الإنسان حرّا؛ ليختار بين ما يُمكِّنه من المأمول جنَّة، وما يحرمه منها، ويدخله جهنَّمَ.

ومن ثمَّ كانت النُّقلة من الوقوع في المفاسد والمعيبات إلى الفضائل الخيِّرة التي جاءت بها الرِّسالات السَّماويَّة هداية؛ فكانت مشاكل الإنسان نتيجة الضلال، وعدم معرفة الحقّ، ولما جاء الحق منزَّلا كفر به كثيرون، وبخاصّة من اعتاد السير على سُبل الضلال، وفي المقابل القلة أهتدت إيمانا بالحق المنزَّل، ومن ثمَّ كان الصِّدام، والخصام، والاقتتال بين أنبياء الحق وجنده المؤمنين من

جهة الإيمان والطَّاعة، وأهل الكفر والمفاسد من جهة الكفر والضلال: (بين أهل الحياة العليا، والحياة الدُّنيا).

ولهذا فأبونا آدم عندما وجد نفسه على الأرض دنيا كان أمله أنْ يعمل ما من شأنه أنْ يعيده إلى الجنَّة ارتقاء؛ تلك الجنَّة التي فقدها، ولم يعد يراها نعيما على الأرض المغبرَّة التي أُهبط بها أرضا.

فأبونا آدم خُلق في الجنَّة، وشهد على نعيمها، وفيها تمتّعَ، ثم حُرم منها، وأهبط به، والأرض دُنوّا، ولكنَّه لم ينس ذلك العيش الرّغِد والوفرة التي لا تُحصى، والتنوّع المتّسع جمالا، وبخاصّة بعد أن أصبح على الأرض التي لم تأخذ أيّ صفة من صفات الجنَّة سوى الماء الذي يبقي على الحياة، ولا يُبقي على النّعيم؛ فأصبحت الحاجة تملأ نفس آدم وزوجه بعد أن حُرما من مشبعاتها المنقوصة في الحياة الدُّنيا.

وعليه: فإنَّ بني آدم في دائرة الممكن هم بين متوقَّع وغير متوقَّع، أي: إنَّهم بين متوقَّع الارتقاء، ومتوقَّع الدّونيَّة، ومن جهة أخرى هم: يتبدَّلون؛ إذ لا ثوابت فمنهم من يبقى على الارتقاء، ومنهم من يتخلّى عنه، ومنهم من نراه في دونيَّة.

ولأنَّ العلاقة بين الاختلاف والخلاف وثيقة؛ فكان الصِّدام بين الحقّ والباطل، اللذين بأسبابهما اصطفى الله تعالى الأنبياء والرُّسُل عليهم الصَّلاة والسَّلام، مبشرين، ومنذرين، وداعين، ومحرّضين على كلّ ما من شأنه خير؛ فكان أوَّل الأنبياء عليهم الصَّلاة والسَّلام: آدم نبيًّا على المختلفين خَلقا: (الملائكة، والجنّ، والإنس)؛ ولأنَّ الإنس

غير الملائكة، وغير الجن؛ فكان بينهم الاختلاف والخلاف كما هو آتٍ:

أَوَّلا: كان الخلاف بين آدم والملائكة على من يكون خليفة في الأرض: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ}[35]. وهنا كان التفضيل لآدم على الملائكة الذي حمل ما لم تحمله الجبال.

ثانيا: كان الخلاف بين آدم والجن: {إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ}[36]. ثمّ كان الاختلاف والخلاف بين الجن، وسيظل على الكثرة مع الكثرة: {وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطا}[37]، وقال تعالى: {وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدا}[38].

ثالثا: كان الخلاف بين الإنس: (آدم وزوجه): وكان من بعدهما الخلاف بين ابنيهما اللذين من بعدهما وقع الخلاف بين النَّاس وسيظل: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[39]

ومع أنَّ الخلاف بين الإنس والجن، فإنَّ الفاسقين من النَّوعين يتوافقون فسقا، والصَّالحين من الإنس والجن

---

[35] البقرة: 30.

[36] الكهف: 50.

[37] الجن: 4.

[38] الجن: 11.

[39] هود: 118، 119.

يتوافقون صلاحا: {وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبا وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقا}[40].

وهكذا، كان الخلاف يتجدّد، ويتكرّر مع أنبياء الله جميعهم، خلافٌ سببه: الصراع بين أهل الحقِ، وأهل الباطل، فسيدنا إبراهيم عليه السَّلام الذي بُعث للهداية كفر به بعض النَّاس، حتى كادوا أن يقتلوه، ويُحرّقوه لولا فضل الله: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[41].

وسيدنا نوح عليه السَّلام وهو الأسبق على سيدنا إبراهيم قد خالفه قومه، ومن بعده لوط، وشعيب، وغيرهم من الأنبياء عليهم السَّلام الذين ابتلوا في شعوبهم، وأقوامهم، وقراهم، ومدنهم، وآخرهم رسول الكافَّة سيدنا محمّد عليه الصَّلاة والسَّلام: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ}[42].

ولأنَ بني آدم لم يُخلقوا على الكمال؛ فكان الضّعف فيهم رغبة وشهوة؛ حيث اختياراتهم بأيديهم؛ ولذلك فمن عمل صالحا فلنفسه، ومن أساء فعليها: {وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفا}[43] ، أي: إنَ الضّعف، والوهن هما مكمن العلّة الآدميَّة؛ فمن يقوى من بني آدم ينهض، ويرتقي،

---

40 الجن: 5، 6.

41 العنكبوت: 24.

42 الفرقان: 31.

43 النساء: 28.

ومن يضعف يستكين، ويعوجّ انحرافا؛ ولهذا بعث الله الأنبياء والرُّسُل الكرام، يرشدون إلى ما يؤدّي إلى القوَّة والارتقاء رحمة؛ فكان نوحُ آية، وبين يديه آيات النّهوض ببني آدم إلى ما يجب أن يكونوا عليه قمّة، ولكنَ الضعف كان في معظم بني قومه آية؛ فكذّبوه، وكفروا به، وبما جاءهم به من الله هداية.

فتلك الفترة التي بُعث فيهما آدم نبيا قد انتهت، والخلاف على أشدّه بين بنيه الأوائل؛ فبعث الله نوحا لهدايتهم، ولكن شدّة الخلاف كانت عائقا أمام هداية كثيرين منهم؛ فكان الطّوفان حلّا فاصلا بين من اتبع الحقّ هداية، ومن ضلّ عنه ضعفا وانحرافا: {قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ}[44]. فالقليل هم الأقويَّاء الذين ارتقوا إلى ما يُمكِّن من النّجاة، أمّا أولئك الضّعفاء؛ فغرقوا ضعفا ووهنا.

وظلّت الحياة بعد الطّوفان العظيم مَحبّة، ومودّة بين بني آدم الذين نجوا هداية، وقوَّة، وارتقاء، ولكن لأنَ الذين أُهبِطَ بهم ظلوا على الأرض الدُّنيا على ما هم عليه من خلاف، فالخلاف بين بني آدم لا مهمَّة له إلَّا إيقاد نار الفتنة، وهنا تكمن علّة الضّعف، والوهن الآدمي؛ حيث بقاء الشّهوة، والرّغبة الجامحة في نفوس من خلف بعض النّاجين، ممّا ولّد فيهم ما ولَّد من خلافات، وانحرافات، وشدائد، وتأزُّمات، وكأنَ الطّوفان لم يُحدِث آية؛ فضلَّ من ضلّ إلى أن بعث الله إبراهيم نبيًّا ورسولا، ثمّ بعث من

[44] هود: 40.

بعده من بنيه أنبياء عظام؛ فكان خاتمهم سيدنا محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام نبيًّا ورسولا بالرّسالة الخاتمة، وللنَّاس كافّة، ولا إكراه في الدِّين؛ إذ تبيّن الرّشد من الغي.

العقل نُقلةُ استخلافٍ في الأرضِ:

مع أنَّ الإنسان قد خُلق في أحسن تقويم؛ ليكون خليفة في الأرض؛ فإنَّه لم يحافظ على حُسن خَلقه كلَّما ساءت أخْلاقُهُ؛ ولهذا بعث الله الأنبياء والرُّسُل مصطفين، ومرسلين لأقوامهم، ومدنهم، وقُراهم، وشعوبهم، وقبائلهم ليدعونهم إلى التوحيد، والهداية، ومع ذلك كفر من كفر إلَّا قيلا منهم.

أمَّا الخليفة فهو من استمد صفاته من صفات خالقه تعالى فعمل بها في الأرض إصلاحا، وفلاحا، وإعمارا، ولا يكون من المفسدين فيها، ولا سافكي الدِّماء بغير حقٍّ.

وقد ورد لفظ: (خليفة) في النّص القرآني في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَة قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[45] كان هذا ضمن سياق الآيات العظيمة التي كانت تمثل البداية الأولى للبشريَّة، فقد وردت ضمن سياق قصَّة رسمت البداية الأولى في كل تفاصيلها، ومن بين هذه التفاصيل كانت الخلافة، وسياق الخطاب القرآني في هذه القصَّة اتسم بالتشريف لآدم .

---

[45] - البقرة: 30.

ويلاحظ أنَ لفظة الخليفة في النّص القرآني وردت بصيغة التنكير التي تحمل دلالة الإطلاق المنفتح غير المتحقّق على اسم شخص بعينه؛ ولهذا كانت البداية لورود اسم الخليفة بداية لتشكل نمطا معرفيّا للصُّورة التي يكون عليها النسق المراد تحقّيقه في الاستخلاف في الأرض.

ولم يكن أمر الخلافة مرتبطا بـ(آدم) فقد وردت في سياقات أخرى في النّص القرآني: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ}46 . وقوله تعالى: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}47.

بناء على ما جاء في هذه الآية الكريمة لا حكم إلَّا بين النَّاس، وعلينا أن نفرّق بين: (حكم النَّاس)، و(الحكم بين النَّاس):

الأولى: أنْ يتم حكم النَّاس كما يشاء مؤتى الحكم من الله تعالى.

والثَّانية: أنْ يتم الحكم بينهم كما هم يرتضون؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ}48؛ ذلك لأنَ العدل مُرضٍ لكلّ النَّاس، وهذه الآية

[46] - النور: 55.

[47] - ص: 26.

[48] ـ النساء: 58.

الكريمة تؤكد على أنَّ الحكم بين النَّاس، وليس حكم النَّاس؛ ولذا فالذين يحكمون بين النَّاس بالعدل هم الخلفاء بارتضاء النَّاس.

وعليه: فالخليفة العدل هو الذي بحكمه العدل يصلح الأرض ولا يفسد فيها، ولا يسفك دما بغير حقّ: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاس}، ولم يقل: {إذا حكمتم النَّاس}.

ولذا كان استخلاف داوود في الأرض ليحكم بين النَّاس بالحقّ: {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاس بِالحقّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى}.

وقد يتساءل البعض:

ما هي القاعدة التي أسّس عليها حكم داوود، واستخلافه في الأرض؟

أقول: العدل، وإلَّا هل هناك من يظن غير ذلك؛ والله تعالى يقول: {فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاس بِالحقّ}، وإلَّا هل هناك من يظن أنَّ الحكم بين النَّاس بالحقّ لا عدل فيه؟

أقول: لا عدل إلَّا بالحقّ، أي: لولا الحقّ ما كان للعدل وجود.

وقد يتساءل آخر:

هل يمكن أن يكون الحكم بين النَّاس بغير عدل؟

أقول:

في دائرة الممكن قد يتم الحكم بين النَّاس باتباع الهوى الذي نهى عنه الله تعالى في قوله: (وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى).

وقد يقول قائلٌ:

بما أنَ الحكم بين النَّاس في دائرة الممكن قد يميل بالهوى كما يميل الحاكم عن النَّاس، وإذا ما حدث ذلك فلا يكون فرق بين: (حكم النَّاس) و (الحكم بينهم).

أقول: الفرق كبير بين من يحكم النَّاس، ومن يحكم بينهم، فالذي يحكم النَّاس يكون الأمر كل الأمر بيده، والذي يحكم بين النَّاس يكون الأمر كل الأمر بيد النَّاس؛ مصداقًا لقوله تعالى: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}49.

وعليه: فمن يؤمن برسالة محمَّد: (الإسلام) يكون خليفة بما استخلفه الله به في الأرض ألا وهو القرآن، كما استخلف من قبل نوحا، وقومه الذين آمنوا بما جاء به نوح عليه السَّلام، وهكذا كان من بعده الاستخلاف وفقًا لأمر الله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ}50، استخلاف جيلٍ بعد جيل، قال تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}51.

---

[49] ـ الشورى: 38.

50 - الأعراف: 69.

51 - الأعراف: 74.

وعليه: فالمستخلفون هم الذين لا يفرِّقون بين أحدٍ من رُسُله، فمثل عيسى كمثل آدم الذي اصطفاه الله على من خلق من ملائكة وجان وعلَّمه الأسماء جميعها؛ ولذلك يجب إلَّا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير.

ولأنَّ المستخلف بالاصطفاء لا يُفرِّق بين الذين استخلفوا فيها من قبله بالاصطفاء من أنبياء ورُسُل؛ فكذلك نحن مأمورون من الخليفة محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام بأن نؤمن بما أُنزل على محمَّد، وجميع الأنبياء والرُّسُل الكرام؛ قال تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيّونَ مِنْ ربّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}52.

ولأنَّ الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، فهو خلقه لرِسالة؛ ولأنَّ له رسالة؛ أُستخلف بها في الأرض ليُصلح فيها، ولا يفسد، ولا يسفك الدماء بغير حقّ، إذن الله تعالى اصطفى الرّسُل صلوات الله وسلامه عليهم برسالات الإصلاح المؤسسة على قاعدة الاستخلاف في الأرض، التي استوجبت مخلوقا في أحسن تقويم، وهكذا الاستخلاف من بعدهم لا يكون إلَّا برسالة، ولأنَّ رسالة محمَّد صلوات الله وسلامه عليه هي الرّسالة الخاتمة، إذن لا خليفة إلَّا ويكون على الرّسالة؛ ولهذا فمن أسلم وجهه

52 - البقرة: 136، 137.

لله كان خليفة، ومن لم يسلم فقدْ فَقَدَ شرطا رئيسا للاستخلاف وهو الرِّسَالة.

والخليفة الخاتم هو محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، الذي خَلف كلَّ الرُّسُل الذين سبقوه اصطفاء، وهو الرَّسُول الذي ليس من بعده رسولٌ آتٍ، وهو المصدّق على ما سبقه بعد نسخٍ، وتنزيل من لدن عليم حكيم.

ومع أنَّ محمَّدًا كان نبيًّا رسولا؛ فإنَّه كان معلَّما ليُعلِّمَ، وليُفصِّل الآيات الربَّانيَّة بكيفيَّة تُمكِّن المهتدين من الممارسة، والعمل، والسُّلوك كما شاءها الله تعالى؛ ولهذا أمرنا الله تعالى بالإيمان بالرَّسُول، وطاعته، والأخذ بأمره، واتباع نهيه الذي لا يكون إلا في مرضاته جلَّ جلاله.

في تلك العصور الغابرة كانت أمَّة العرب بين ظُلمةٍ ونورٍ، وقبائل بدويَّة يغلب عليها طابع التنقل والترحال، فبعث الله فيهم محمَّدًا رسولا منهم يهديهم، ويعلِّمهم الكتاب والحكمة، وينهض بهم من حياة الخيام، والكفر، والتخلف، إلى حياة الإيمان، والمدنيَّة الآمنة، والمستقرة.

في تلك العصور وقبل بعثة محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام كانت أمَّةُ العرب تتصدَّرُ الحضارات بناء: (علما، وفنّا، وإعمارا)، وكان العالم البائد بها يتغنّى، ومع أنَّها عبر التَّاريخ كلَّما انتكست، أو انكسرت أعادت البناء نهوضا، فإنَّها في عصورنا هذه ألمَّ البياد بها فوهنت، وشاخت.

ففي تلك العصور كانت حضارة: (العرب عاد) لا مثيل لها: {لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}[53]، ومع ذلك أهلها طغوا،

---

[53] الفجر: 8.

وكفروا بنعمة الله عليهم، فبعث فيهم رسولا؛ ليرشدهم إلى التي هي أحسن فلم يهتدوا؛ فكانت الانتكاسة على رؤوسهم بأيديهم كفرا، وطغيانا: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا}[54]، إنَّها الانتكاسة من القصر إلى الخيمة، من الحضارة إلى فيافي الصَّحراء، إنَّها حضارة العرب التي كانت: (جَنَّاتٍ وعُيُونٍ)، والتي من بعد أصبحت في خبر كان، ولم يبق شيء في مركز الحضارة: (حضرموت) إلَّا الخيمة، التي نُسجت من شعر المعز، ووبر الإبل.

ولأنَّ العرب أهل حضارات فكلَّما انكسروا في حضارة بنوا غيرها؛ فهم من بعد حضارة: (عرب عاد في حضرموت) بنوا حضارة: (عرب ثمود في شمال الجزيرة العربيَّة)، {وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ}[55] فأولئك العرب بلغوا من التقدُّم ما جعلهم ينقلون المياه في الصَّخر العظيم يجري وكأنَّه وادٍ؛ ليروي الأرض زراعة، حتى قُهرت الحاجة فيهم، وأصبحت الحضارة عنوانهم.

وهكذا كان لحضارات العرب مراكز متقدِّمة في وادي النيل: أهرامات عملَاقة تعدُّ من إحدى العجائب السَّبع التي ما زالت شاهدة على سيادة حضارة العرب: {وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ}[56]، وكذلك حضارة عرب بابل ذات الحدائق المعلَّقة التي هي الأخرى تعدُّ إحدى عجائب الدُّنيا السَّبع في العالم القديم، ومع أنَّ حضارات العرب قد زالت فإنَّ بعض آثارها لا يزال شاهدا على التَّاريخ الحضاري، فَسدُّ

[54] هود: 58.

[55] الفجر: 9.

[56] الفجر: 10.

مأرب العظيم في اليمن، ومملكة سبأ التي ذُكرت ملكتها في القرآن لخير دليل على تقدُّم العرب ثقافة، وعلما، وسياسة، واجتماعا، فالعرب قبل انتكاسات حضاراتهم سبقوا العالم في تبوَّء المرأة القمم السُّلطانية كونها لم تُعد عورة، وفي عهد تلك الملكة كانت الدِّيمقراطيَّة شورى: {قَالَتْ يَاأَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَة أَمْرا حَتَّى تَشْهَدُونِ}[57] كما أنَّها، والملك سُليمان عليه السَّلام كانا عَلَمين من أعلام قِمم التقدُّم الحضاري للعربِ مصداقًا لقوله تعالى: {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّة}[58] فقال لها النَّبيّ سُليمان: {إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ}[59].

تلك من شواهد حضارات العرب التي كلَّما انتكست لهم حضارة انكسروا خياما، والمرأة تُصبح عورة؛ ومن بعد تلك الحضارات عاش العربُ سنين الظُّلمة يتَّخذون من دون الله أربابا، حتى بعث الله فيهم رسولا منهم: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}[60].

جاء الدِّين الإسلامي منزَّلا على رسولٍ من العرب، رسولٍ للكافَّة؛ غايته أن يعلِّمهم الكتاب والحكمة؛ لينهضوا مما هم فيه من تخلُّف، وعبوديَّة إلى ما هو أعظم تقدّما، وأكثر ارتقاء، وحريَّة؛ إذ: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّين قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ

---

[57] النمل: 32.

[58] النمل: 44.

[59] النمل: 44.

[60] الجمعة: 2.

مِنَ الْغَيِّ}[61].

ومع أنَ محمَّدًا عربيٌّ من قريشٍ، فإنَّه الرَّسُول الخاتم وللكافَّة؛ ولهذا كانت المدينة المنوَّرة وجهته الحضارية؛ لتأسيس الدَّولة على الشُّورى ديمقراطيّا، لقد اختار رسول الكَّافة المدينة؛ لأنَّها المسمَّى الحضاري الذي يحتوي الكلَّ، ولا مغالبة، ولا عصبيَّة، وهذا يشير إلى ولادة سياسة جديدة، حكمتها العدل، والبناء والإعمار، كما يشير إلى: (كفاية يا زمن الخيمة، كفاية يا زمن العصبيَّة، كفاية يا زمن الانكسار).

في المدينة كان الأمر بين النَّاس شورى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}[62] ، أي: في عهدك يا رسول الله لا تقرر أمرا يخصَّهم نيابة عنهم، أمَّا من بعدك فالأمر بينهم لا يكون إلَّا شورى في كلِّ ما يتعلَّق بهم من أمر، فتأسَّست الدِّيمقراطيَّة بينهم على مبدأ: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[63]؛ ومن ثمَّ كان العِلمُ، والفلسفةُ، والحكمةُ جنبا إلى جنبٍ مع الفتوحات هداية وعمرانا، حتى الأندلس التي ما زالت شواهد الحضارة: (العربية الإسلاميَّة) فيها على قيد الحياة قِبلة السَّائحين في العالم.

ولأنَّ محمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام، كان عازما على النُّهوض بالعرب بالإسلام، عمل على تأسيس مجتمع المدينة؛ ليكون أنموذجا للحياة المدنيَّة، والحضاريَّة؛ وذلك بغاية التخلُّص من حياة القبيلة: (العصبيَّة) فوثَّق

[61] البقرة: 256.

[62] آل عمران: 159.

[63] الشورى: 38.

ذلك في وثيقة المدينة: (الميثاق الوطني)، التي ساوت بين سُكَّانها بمختلف أديانهم، وألوانهم، وأعراقهم، إنَّهم: (أمَّة واحدة).

وعليه: فإنَّ اختيار الرَّسُول: (للمدينة المنوَّرة) مقرّا لتأسيس الدَّولة جعل التطابق بين: (اسم المدينة، وصفتها)، أي: إنَّ اسمها المدينة، وصفتها المدنيَّة، ورسالتها التمدُّن بغاية التحضُّر؛ ولذا فاختيار المدينة في ذاته يدلُّ على روح القصد من الاختيار وهو الارتباط بالمدينة؛ كونه المحقق للرِّفعة، وتبوُّء المكانة، التي لا تفريق فيها بين أهلها وإن تفرَّقت عروقهم، وأديانهم. ولتبيان القصد من وجهة نظرنا أتساءل:

لماذا اختار الرَّسُول عليه الصَّلاة والسَّلام المدينة المسماة: (المدينة)، ولم يختار غيرها من المدن التي لم تسمَّ باسم: (المدينة)؟

من هنا نَستمدُّ القصد، وبخاصَّة جاءت وثيقة المدينة مرسِّخة للمدنيَّة، والدَّولة الوطنيَّة: "بسم الله الرَّحمن الرَّحيم هذا كتاب من محمَّد النَّبيّ: (رسُول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش ، وأهل يثرب، ومن اتبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم. إنَّهم أمَّةٌ واحدة من دون النَّاس"[64]. في عهد الرَّسُول كانت الشُّورى بينهم وبينه عليه الصَّلاة والسَّلام، أمَّا من بعده فأصبح الأمر بينهم شورى كما سبق تبيانه.

---

[64] محمود بسيوني شريف، الوثائق الدولية المعنية بحقوق الإنسان، المجلد الثاني، دار الشروق، القاهرة، 2003.

نُقلةُ العقل فكرًا بعد رَسُول الكافَّة:

الرَّسُولُ عليه الصَّلاة والسَّلام لا يصطفيه إلَّا الله، والله تعالى لا يُخلِفَ رسولا برسولٍ إلَّا بنبأٍ أو رسالةٍ، سواء أكانت رسالة للخاصَّة: (القوم، والمدينة، والقبيلة)، أم للعامَّة: (رسالة كافَّة)؛ ولهذا لا يخلفُ الرَّسُول إلَّا رسولٌ، ومن ثمَّ فقد انتهى زمن الاستخلاف باستخلاف الرَّسُول الخاتم: (محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام)، أمَّا من بعد الرُّسُل الكرام فلا خلافة لأحدٍ؛ أي: لا يمكن لعبدٍ أن يكون خليفة للرَّسول، والله لم يصطفه لذلك.

ولهذا فمسمَّى خليفة رسول الله لا ينطبق مفهومه مع مفهوم الاستخلاف، الذي يربط العلاقة بين السَّماء والأرض، فبعد انتهاء فترات بعث الرُّسُل صلوات الله وسلامه عليهم، أصبح الأمر بين أيدي بني آدم، وفقًا لرؤاهم، ومدى ارتقائهم، وأخذهم بالفضائل الخيّرة، التي أمر بها الخالق، ففي زمن الرُّسُل لا وجود للأنظمة الحاكمة؛ بل الأمر كان بين السّماء والأرض إنباءٍ ورسالاتٍ: (أنبياء ورُسُل)، أمَّا بعد الرّسالات والرُّسُل؛ فالأمر أصبح بين النَّاس شورى، وفقًا للإرادة، والحقِّ، والرّغبة، والمقدرة، والحاجة المتطوّرة عبر الزَّمن: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[65]، والشورى هنا: لم تكن خاصّة بالمسلمين، بل هي الحلّ؛ فمن شاء الحلّ فعليه بها ديمقراطيَّة بلا مكاره.

ومن هنا، كان الخلاف في معظمه بين من يحكم من، ومن يأخذ بما أنزلت به الرّسالات الخالدة ارتقاء، وبين من يتخلّى عنه دونيّة وانحدارا، ومن يرى الحريَّة

[65] الشورى: 38.

حيث لا إكراه، وبين من يراها تمدّدا خارج الحدود، ومن يراها لا تكون إلَّا وفقًا لما يفيد الأنا، أو طائفته، أو قبيلته، أو حزبه، أو مدينته، وفي المقابل هناك من يرى الحريَّة عدالة يستظل الجميع تحت مظلتها حقوقا تمارس، وواجباتٍ تؤدّى، ومسؤوليَّاتٍ تُحمْل، وبين هذا وذاك لا يزال بنو آدم مختلفين، وسيظلون إلَّا من رحم ربّك: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّة وَاحِدَة وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[66].

ولأنَ الخلاف لن ينتهي بين بني آدم، إذن؛ فسيظل بينهم حيثما بقوا على أرض الاعوجاج دُنيا، ولا استغراب أن يخالف بعض النَّاس بعضا، ولا استغراب أن يتصادم بعضهم مع بعضٍ، ولكن الاستغراب إلَّا تُصحّح المعلومات الخاطئة بمعلوماتٍ صائبة تُصلح المعوجّ، وتدفعه تجاه الحلّ دون هيمنة، ولا حرمان؛ أي: لا ينبغي أن يُلغى الخلاف، بل ينبغي أن يلاحق الاختلاف حلّا حيثما حلّ.

وعليه: في زمن الرّسالات والأنبياء الكرام كان الحلُّ يتنزّل على الأقوام، والأمم، والكافّة من السّماء تنزيلا، أمَّا في الزَّمن الذي بعد رسُول الكافة، فلا نبي، ولا رسالة بعد الرّسالة الخاتمة، كلّ شيء قد أُنزل، وبقي الأمر بين النَّاس شورى، سواء أكان أمر النَّاس سلما، أم حربا، أم سياسة داخليَّة، أم سياسة خارجيَّة؛ فما يتّفق عليه من يتعلّق الأمر بهم يُقدَّر، ويحترم، ويعتبر؛ فَيُقر، ويؤخذ به عملًا، وفعلا، وسُلوكا، وفي المقابل لا يؤخذ بما يخالفه؛ لكونه معوجّا.

[66] هود: 118، 119.

ولذلك؛ فالخلاف، والخصام، والجدال، والصِّدام في زمن الرُّسُل، تأسّس على الفضائل الخيّرة، التي لا تستمدّ إلَّا ممّا أنزل من عند الله؛ إذ: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ}[67]، و{وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[68]، و{لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ}[69].

فهذه الفضائل ارتقاء جاءت إنسانيَّة، وستظل بين من يأخذ بها ارتقاء إنسانيَّة؛ لأنَّها فضائل طي الهوة، التي تُختلق من الحين والحين بين بني آدم عِلّة.

أمَّا بعد اختتام الرّسالات والرُّسُل، فأصبح للقيم الاجتماعيَّة تقديرا ومكانة، إلى جانب تلك الفضائل الإنسانيَّة، فأصبح للخصوصيَّة الاجتماعيَّة أهميَّة ومكانة، ولتنوّع اللغات أهميَّة ومكانة، ولما يختاره ويقرّه النَّاس أهميَّة وضرورة، ومن ثمّ، أصبح للدّساتير، والقوانين المنفّذة لها أهميَّة مقدّرة بين الأمم والشّعوب؛ ولذلك فالأخذ بالقيم الحميدة يؤكّد أهميَّة تلك الفضائل الخيّرة في ترسيخ قيمة الإنسان، وحفظ كرامته من خلال عدم إكراهه بأيَّة عِلّة، ومن خلال مشاورته في كلّ أمر يتعلّق به وبمصيره، وفي المقابل من يغفل عن أهميَّة ذلك، سيجد نفسه شريكا في كلِّ ما يؤدّي إلى الفتن، والانقسامات، والصّدمات المؤلمة، التي لا تكون إلَّا على أيدي المعوجّين عمَّا يجب أن يكون بين النَّاس محبَّة، ومودَّة.

وهكذا كان الخلاف من بعدهم؛ فحادثة سقيفة بني ساعدة؛ حيث اجتمع عدد من الصحابة من المهاجرين

---

[67] البقرة: 256.

[69] الكافرون: 6.

[68] الشورى: 38.

والأنصار، ودارت بينهم مفاوضات، انتهت في النهاية باختيار أبي بكر كأوَّل خليفة للمسلمين.

وقد تعددت الرِّوايات حول ما حدث تحدِّيدا في هذه الحادثة، واختلفت الرؤى على صحّة الاختيار، أو الشورى في المفاوضات؛ فبعد وفاة نبي الإسلام محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، ورشحوا سعد بن عبادة للخلافة ، ولكن حينما سمع عمر بن الخطاب بهذا الأمر، أخبر أبا بكر الصدّيق وأسرعا إلى السقيفةِ، وأكدا أحقيَّة المهاجرين في الخلافة كما يعتقدان.

دار جدال بين أبي بكر وعمر من جهة، والأنصار من جهة أخرى؛ فاقترح الأنصار أن يكون من المهاجرين أمير، ومن الأنصار أمير، فاختلف معهم عمر بن الخطاب في هذا الأمر، ورشح أبا بكر للخلافة، وانتهى الأمر باختيار صاحب رسول الله أبي بكر الصدِّيق خليفة للمسلمين، وفقًا لترشيح صاحب رسول الله عمر بن الخطاب.

ومن هنا أقول:

لا يمكن أن يكون لرسول الله خليفة، ولكنَّ العرب المسلمون في ذلك الوقت اتخذوا عنوان الخلافة لإدارة شؤونهم المدنيَّة، ولا اعتراض على مسمى الخليفة، ولكنَّ الاعتراض على إلصاق الخلافة بخلافة رسول الله؛ ذلك لأنَّ الرَّسُول لا يخلفه إلَّا رسولٌ من عند الله، وليس من عند العباد.

ومع أنَّ الاختلاف بين النَّاس من نِعم الله التي بها تتنوَّع أساليب الحياة، وتُكسَر أطواق الملل، ففي المقابل

الخلاف بين بني الإنسان نقمة، به تُقطع علاقات المحبَّة والمودَّة، كما قُطعت العلاقات بين الذين يؤمنون بربٍ واحد، ونبيّ واحد، كما هو الحال بين طائفة أهل الشيعة، وطائفة أهل السنّة؛ فطائفة الشيعة كانت ترى أنَ آل بيته أولى النَّاس بالخلافة، وأولى آل بيته عمّه العبّاس، وابن عمه علي، وعلي أولى من العبّاس؛ لأنَّه أسبق إلى الإسلام، كما أنَ له نسلا من ظهر الرّسول، ثمّ إنَ العبّاس نفسه لم ينازع عليًا في أولويَّته للخلافة.

وعليه: أقول: لا صراع على النبوَّة؛ لأنَ أمرها لا يكون إلَّا من عند الله، مع العلم أنَ هناك من ادَّعاها، ولكن الفرق كبير بين الحقيقة، والادعاء بها؛ وفي المقابل كان الصراع على أشُدِّه بين النَّاس على من يحكم من.

وهكذا في كلِّ مرحلة من مراحل الدَّولة الإسلاميَّة، الخلافات تتجدّد؛ والخلفاء يُقتلون؛ فقُتل عمر، ومن بعده قُتل عثمان، ثمّ قُتل علي. وقد ظهر بأسباب الخلاف المرتدّون في زمن أبي بكر، والخوارج الذين خرجوا على الإمام علي بن أبى طالب عندما قبل التحكيم في موقعة صفِّين؛ ذلك لأنَ الخوارج رأوا أنَ عليًا قد أخطأ بقبوله التحكيم؛ فقالوا جملتهم الشهيرة: (لا حكم إلَّا لله).

ومن بين أهم المعارك الخلافيَّة موقعة الجمل التي وقعت في البصرة عام 36 هـ بين قوات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، والجيش الذي يقوده الصحابيان طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ، إضافة إلى أم المؤمنين عائشةK التي قيل إنَّها ذهبت مع جيش المدينة في هودج على ظهر جمل ، وسمّيت المعركة بالجمل

نسبة إلى الجمل الذي عليه هودج أمّنا عائشة رضي الله عنها.

فبعد حدوث الفتنة، ومقتل الخليفة عثمان بن عفان عام 35هـ بَايَعَ كبار الصحابة الإمام علي بن أبي طالب لخلافة المسلمين، وانتقل إلى الكوفة ، ونقل عاصمة الخلافة الإسلاميَّة إلى هناك، وبعدها انتظر بعض الصحابة أن يقتصّ الإمام من قتلة عثمان، لكنَّه لم يأخذ بهذا الأمر.

ومن هنا، كان الخلاف بين علي ومعاوية حتى بلوغ حالة الاقتتال بين صحابة رسول الله؛ فكانت معركة صفّين في محرّم سنة 37هـ؛ حيث أراد الخليفة علي أن يعزل معاوية من على الشَّام؛ فخرج إليه بجيشه، ودار الاقتتال عند صفّين، وعندما شعر جيش معاوية أنَّه على مقربة من الهزيمة، طلبوا التحكيم مع علي وجيشه: (أهل العراق) فرفعوا شعار: (كتاب الله بيننا وبينكم) إنَّه شعار أهل الشَّام تحت رئاسة معاوية.

ومع أنَّ الطرفين قد اتفقا على وقف الاقتتال والقبول بالتحكيم، فإنَّ الرَّفض كان على أشدّه من قبل طائفة من جيش علي بن أبي طالب، ومع ذلك، تمّ الاتفاق وخُتم بختم علي بن أبي طالب على أعلى صحيفة التحكيم، وخُتم بختم معاوية بن أبي سفيان على أسفل الصحيفة.

ومع أنَّه الاتفاق المختوم، فإنَّ الرَّافضين من أهل العراق بقوا على رفضهم، بل زادوا على رفضهم الخروج عن طاعة علي، ورفعوا صوتهم بقولهم: (لا حكم إلَّا لله) وطلبوا من الخليفة علي نقض العهد، ولكنّه رفض.

وكان أبو موسى الأشعري مفاوضا وممثلًا لعلي وجيشه، وكان عمرو ابن العاصّ مفاوضا وممثلًا لمعاوية وجيشه؛ فقام الأشعري بخطبته قائلا: "أيّها النَّاس إنَّا نظرنا في أمرنا فرأينا أقرب ما يحضرنا من الأمن والصلاح، ولم الشعث، وحقن الدِّماء، وجمع الألفة خلعنا عليا ومعاوية، وقد خلعت عليا كما خلعت عمامتي هذه" وخلع عمامته. 70

وقام عمرو، وقال: (أيّها النَّاس إنَّ أبا موسى عبد الله بن قيس قد خلع عليّا وأخرجه من هذا الأمر الذي يطلب، وهو أعلم به، ألا وإني خلعت عليّا وأثبِت معاوية عليَّ وعليكم).

فقال الأشعري: كذب عمرو، ولم نستخلف معاوية، ولكنَّا خلعنا معاوية وعليّا! فقال عمرو: بل كذب عبد الله بن قيس، قد خلع عليّا، ولم أخلع معاوية.

ووفقًا لصحيفة التحكيم عاد علي ومن معه من جيشه إلى الكوفة، وتحرّك معاوية وجيشه إلى الشَّام.

ولأنَّ الخلاف يشتدُّ مع شدّة الصِّدام؛ فكان على أشدّه بين علي ابن أبي طالب، والذين انشقوا وخرجوا عنه، وكان أكثر شدّة عندما اجتمع الخوارج في النهروان سنة 38هـ فقاتلهم علي، وقتل منهم من قتل، ثم اختلفوا وتخالفوا؛ فانشقوا بعد ذلك إلى 20 فرقة.

ثم قُتل علي بن أبي طالب على أيدي الخوارج في 16 رمضان 40هـ وهو يُصلِّي الفجر في المسجد.

بعد عصر الخلفاء الراشدين: (أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي) أخذت الخلافة لونا آخر، كان التوريث فيها هو العنوان، بدلا من تلك التجربة التي سبقت؛ ولهذا كان الاقتتال على أشدِّه بين الأخوة والأعمام، وبين الأقارب والأباعد؛ وبهذا انتهى عصر الخلافة دينا، وهلَّ على المجتمع العربي والإسلامي عصر الخلافة حُكما.

العقل فكرًا نُقلة خِلافًا من بعد الخلافة:

في زمن الخلافة لم يكن هناك فصل بين صلاحيَّات من يتولَّى رعاية الإسلام: (الدِّين) ومن يتولَّى إدارة شؤون المسلمين: (الرَّعيَّة)؛ أي: إنَّ نظام الخلافة كان راعيا للدين وكأنَّه لا فرق بينه والدَّولة: (وكأنَّ الدِّين هو الدَّولة).

أمَّا بعد زمن الخلفاء: (أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومعاوية)؛ فقد كان الصِّراعُ داخل الأمَّة - على الخلافة - صراعُ وراثة دمويَّة، وفي المقابل كان الصِّراع مع الخارج فتح دِّولٍ وامصارٍ.

ولأنَّ الخلاف يفرِّق ولا يجمِّع، كان الخلاف بين الذين يؤمنون بربٍّ واحد، ورسولٍ واحد، ولا يفرِّقون بين أحد من رُسله؛ فكان المرتدّون بأسباب حداثة الإسلام، وضعف الإيمان، والاختلاف على من يأتي من بعد الرّسول؛ فكان الخوارج، وكان الاقتتال بين هذا وذاك قتالا بلا شفقة؛ كلّ ذلك كان بأسباب عدم قبول الاختلاف: (عدم قبول الرَّأي الآخر). إنَّه الاقتتال من أجل السُّلطة، وليس الاقتتال من أجل الهداية، ونشر الإسلام، والعدالة، وإحقاق الحقّ.

ولأنَّه الخلاف المؤدّي إلى الاقتتال؛ كان الخلاف بين أهل الدِّين الواحد لا يختلف عن الخلاف مع من هم على دين آخر.

وعليه: فإنَّ الاختلاف والخلاف عبر الزَّمن متلازمان مترافقان في أيٍّ مكان، وفي كلِّ دولة؛ وقد بدء الخلاف من بعد وفاة رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام، واشتد في عهد الدَّولة الأمويَّة (662م – 750م)، ثم من بعدها الدَّولة العباسيَّة.

أمَّا في الدَّولة الفاطميَّة فكان الاختلاف منذ البدء مع مؤسّسها عبيد الله المهدي: (909 - 934م)؛ وذلك بعد قضائه على دولة الأغالبة، واتخاذه مدينة المهديَّة بتونس عاصمة له، التي من بعدها زحف الفاطميون وحلفاؤهم إلى المشرق وأسّسوا القاهرة مع رابع خلفاء العبيديين المعزّ لدين الله الفاطمي، وبأسباب الخلاف لم يتبقَّ منهم في الجزائر والمغرب وتونس إلَّا القليل.

وتوسعت الدَّولة الفاطميَّة على حساب الخلافة العباسيَّة، واستولى الفاطميّون على شرق الجزائر، ثم تونس، ثم ليبيا، ومن بعدها صقلية التي بقيت في حكمهم حتى 1061م.

ولأنَّه الخلاف على السُّلطة والحكم، دخل الفاطميّون في صراع مع العباسيين للسيطرة على الشَّام، كما أنَّهم تنازعوا السيطرة على شمال إفريقيا مع أمويي الأندلس؛ وكذلك تمكَّنوا من السيطرة على الحجاز والحرمين ما بين سنوات 965-1070م. ولكن صلاح الدِّين الأيوبي انقلب

على الدَّولة الشيعيَّة، وتولَّى الوزارة منذ 1169 م، وأعاد الخلافة العباسيَّة سنة 1171م.

وفي أثناء حكم الدولة العباسية تكونت فرق دينيَّة متعدِّدة عارضت الحكم العبّاسي، وكان محور الخلاف بين هذه الفرق والحكّام العبّاسيين: (الخلافة)، أو إمامة المسلمين، وكان لكلّ جماعة منهم خصوصيَّاتها السِّياسيَّة في إقامة الحكم الذي تريد.

جعلت هذه الفرق النَّاس على خلافات بين طوائف وأحزاب، وأصبحت المجتمعات العباسيَّة ميادين تتصارع فيها الآراء وتتناقض، فوسَّع ذلك من الخلاف السياسي بين مواطني الدَّولة حتى تصدَّعت وحدتها، ومن العوامل الداخليَّة التي شجّعت على انتشار الحركات الانفصاليَّة، اتساع رقعة الدَّولة العباسيَّة، وبُعد المسافة بين أجزاء الدَّولة، وصعوبة المواصلات في ذلك الزَّمن، هذه جعلت الولاة في المدن النائية يتجاوزون سلطاتهم، ويستقلّون بشؤون ولاياتهم، دون أن يخشوا الجيوش القادمة من عاصمة الخلافة لإخماد حركتهم الانفصاليَّة، والتي لن تصل إلَّا بعد فوات الأوان، ومن أبرز الحركات الانفصاليَّة عن الدَّولة العباسيَّة، حركة الأدارسة وحركة الأغالبة، والحركة الفاطميَّة.

انتهى الحكم العباسي في بغداد سنة 1258م على يد هولاكو خان التتري، الذي قتل من قتل إلى جانب قتله الخليفة وأبناءه؛ فانتقل من بقي على قيد الحياة من بني العبّاس إلى القاهرة بعد تدمير بغداد؛ حيث أقاموا الخلافة مجدَّدا في سنة 1261م.

واستمرت الخلافة العباسيَّة حتى سنة 1519م، عندما اجتاحت الجيوش العثمانيَّة بلاد الشَّام ومصر، وفتحت مدنها وقلاعها، فتنازل آخر الخلفاء عن لقبه لسلطان آل عثمان: (سليم الأوَّل)؛ فأصبح العثمانيون خلفاء المسلمين، ونقلوا مركز العاصمة من القاهرة إلى القسطنطينيَّة.

هكذا هي نتائج الخلاف، بداية: استيلاء على السُّلطة، ثمّ صراعات وفتن بين الفرق والطوائف التي حياتها لهو، وفساد، وكيد، ومكر، إلى أن تأتي النِّهاية سقوط غير مأسوف عليه.

ولأنَّه الخلاف؛ فلا يقتصر على شعبٍ أو دينٍ، أو أمَّةٍ، أو حضارةٍ، بل يمتدُّ بين النَّاس كلّما توافرت معطيات ظهوره؛ فالخلاف كما يجري بين المسلمين؛ يجري بين المسيحيين الذين تقسّموا بأسبابه إلى:

- كاثوليك.
- أرثوذكس.
- بروتستانت.

فبأسباب الخلاف في القرن الخامس الميلادي، حدث انشقاق كبير نتج عنه أنْ أصبحت بعض كنائس الشّرق تحت قيادة كنيسة الإسكندرية ، وكنائس الغرب تحت قيادة كنيسة روما ، وسميت الأولى بالكنائس الأرثوذكسية، والثَّانية بالكنائس الكاثوليكيَّة إلى أن جاء الخلاف في القرن الحادي عشر الذي بأسبابه انفصلت

كنائس القسطنطينيَّة، واليونانيَّة، وبعض الكنائس الأخرى عن الكنيسة اللاتينيَّة، وسميت أيضًا بالكنائس الأرثوذكسية.

وبأسباب الخلاف، يؤمن الكاثوليك والبروتستانت أنَّ الأب أعظم من الابن والرُّوح، والأرثوذكس يؤمنون أنَّهم متساوون.

أمَّا بالنسبة إلى روح القدس: فيؤمن الكاثوليك والبروتستانت أنَّه منبثق من الأب والابن معا، والأرثوذكس يؤمنون أنَّ الرّوح منبثق من الآب فقط.

أمَّا بالنسبة إلى الابن: يؤمن الكاثوليك والبروتستانت بأنَّه مكوَّن من طبيعتين ومشيئتين، ويؤمن الأرثوذكس أنَّه طبيعة ومشيئة واحدة.

وبالنسبة إلى مريم عليها السَّلام، يؤمن الكاثوليك أنَّها أمّ المسيح، وزوجة الرّوح القدس بالفعل، وأنَّها الآن في السماء، فوق المسيح ابنها، ويؤمن الأرثوذكس أنَّها أم الإله، وأنَّها الآن في السّماء عن يمين المسيح، ويؤمن البروتستانت أنَّها إنسانة عاديَّة مسيحيَّة؛ وهكذا هو الاختلاف والخلاف يتلونان ويتنوّعان ويمتدّان مع الحياة امتدادا بلا انقطاع.

ومع أنَّ جمال الحياة في تنوّع، فإنَّ الخلاف على رأس المفسدات لهذا التنوَّع، ولا سبيل من بعده للنَّاس إلَّا التفاهم، والتفهُّم، والاستيعاب، والتكيُّف، والتوافق، ومن لم يقبل بذلك، سيجد نفسه في الطريق المخالف.

ومن ثمّ؛ فعلى بني آدم أن يميّزوا بين ما يجب ويتّبعونه إرادة، وما لا يجب ويجتنبونه، وينتهون عنه،

وبعد التبيّن لا ينبغي أن يكره أحد على شيءٍ هو لا يرغبه: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّين قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[71]،{وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جميعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاس حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[72] ، {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ}[73]، {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ}[74].

هذه الآيات الكريمات بأسباب الاختلاف والخلاف الإنساني مأمورُ الأخذُ بها أمرا من عند الله تعالى؛ فلا داعي للإكراه، والإجبار، والإقصاء، والسيطرة بغير حقٍّ. بل ما يجب اتباعه: قبول الآخر المختلف، واستيعاب المخالف، وتفهّم ظروفه، والعمل معه من حيث هو، من أجل أهداف وآمال مشتركة تستوجب تصحيح المعلومات الخاطئة بمعلومات صائبة؛ حتى يَتمكَّن الجميع من بلوغ المأمول الأجود مع وافر المحبَّة والتقدير.

ومع أنَّ الدِّين لا إكراه فيه، فإنَّ البعض يُكره النَّاس قهرًا على ما لا يرغبون، حتى أصبح اللبس وعدم المقدرة على التمييز بين الدِّين الإسلامي الذي لا إكراه فيه، وبعض المسلمين الذين يسلكون ما يخالف ذلك.

ومن ثمَّ أصبح الخلاف على أشدِّه بين المسلمين الذين لا يرون الدِّين إلَّا كما أُنزل، وكما عمل، وفعل، وسلك رسُول الله محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام، ومن يميل إلى

---

[71] البقرة: 256.

[72] يونس: 99.

[74] الغاشية: 21، 22.

[73] الكهف: 29.

ردة فعلٍ، أو تفسيرٍ لا اتفاق عليه، وقد يتعارض مع سُبل وأساليب الهداية والدِّعاية والتبشير.

ومع ذلك فقد انتهى عصر الخلافة، والإمامة، والولاية، ولم يبق شيئًا منه إلَّا مع من تبقَّى من الذين يسخِّرون العناوين لحكم العباد باسم الدِّين، والدِّين منهم براء.

الدَّولة القوميَّة:

القوميَّة رابطة دم وعلاقات اجتماعيَّة، تلتحم مفرداتها قوَّة كلَّما شعرت بخطرٍ يهدد كيانها ووجودها، وفي المقابل ترتخي، وتستكين، وتستسلم للشهوة، والرَّغبة، واللذة؛ فتنكسر، وتتفرَّق، ثمَّ تتفكَّك شيعا وأحزابا.

وفي زمن القوميَّات كان للزَّعيم دلالة ومعنى، وكان للقائد المغوار دلالة ومعنى، وبخاصَّةٍ بعد أنْ احتلَّت بلدان المسلمين كرهًا، وأصبحت تحت سيطرة المستعمرين، فكانت دائرة التَّاريخ تعصف قتالا، وجهادا، واستشهادا في سبيل الدِّفاع عن الدِّين، والوطن، والعِرض؛ ومن هنا بدأ التفاخر بالشهيد، والقائد المغوار، والزَّعيم المرشد، والمجاهد البطل؛ فكان التحرُّرُ والاستقلال، وتكوين الممالك، والإمارات، والسلطنات، وتأسيس الدِّول، والنُّظم.

ومن ثمَّ أصبح البحث عن الزَّعيم: إماما، وملكا، وأميرا، وسُلطانا، وقائدا، وبدأت الولاءات، والمبايعات للأشخاص، الذين يُعتقد أنَّهم قد خصُّوا بهذه الخاصيَّات؛ ولكن هنا اختلطت صفة القدوة الحسنة مع المصطنع لها اصطناعا؛ فكان الفساد، والظُّلم، والقهر، والاستعباد، والإقصاء، وتكبيل الحريَّات، إلى جانب اللهو على حسابِ حَمْلِ المسئوليَّة؛ فبدأت الانقلابات، والثورات تتفجَّرُ على أيدي العسكريين،

الذين شعاراتهم المبدئيَّة ترفض الفساد، والفاسدين، وكان لهم التأييد الشَّعبي بشكلٍ واسع، وكان الاعتزاز بالقوميَّة أعظم.

إنَّه عصر القوميَّات، وسيادة الأمم، الذي تزامن مع عصر الديمقراطيَّات المتنوِّعة، والمتباينة في الدِّول المتقدِّمة سياسة، واقتصادا، وعلما، ومعرفة؛ فكان الحلم الواسع يدفع أصحابه إلى التمدّد على حساب حريَّات الغير؛ ما جعل لكلِّ بداية نهاية.

ولأنَّ للقوميَّة صلة اجتماعيَّة فهي تنشأ من الاشتراك في الوطن، واللغة، ووحدة التَّاريخ، التي تشدَّ الشَّعب بقوَّة رابطة العرق، أو القوم، ولهم من ورائها مقاصد سياسيَّة تَرْمِي إِلَى خَلْقِ وَعْيٍ بأهميَّة الحميَّة، والْمَصَالِحِ الْمُشْتَرَكَةِ؛ دفاعا عَنْ الأُمَّةِ الَّتِي تَقُومُ وَحْدَتُهَا عَلَى أَسَاسِ وَحْدَة اللُّغَةِ، وَالتَّارِيخِ، وَالثَّقافة، وَالأَرْضِ.

ولقد عاشت معظم دول العالم عصر القوميَّات، وسادت قوميَّات على حساب أخرى، ولكن التَّاريخ سجَّل في صفحاته انكسارات كبيرة وكثيرة؛ أنهت عصر القوميَّات، وعصر الزَّعيم، والقائد المغوار، والرَّمز، وحلَّ محلَّه عصر الوطنيَّات.

ولأنَّ عصر القوميَّات عصر الزَّعامة، فإنَّ الزّعامة: شأن هويّةٍ اجتماعيَّة، ووطنيَّة، وأخلاقيَّة، يبلغها من بلغ هذا الشأن بما هو عليه من شخصيَّة مُتَّعظة بالحكمة، وعِبر التَّاريخ، ومتمكِّنة من المعرفة، والتجربة، ومستوعبة للآخرين بما هم عليه، وبما يأملون.

فالزّعامة القوميَّة لا توهب، ولكنَّها تُنتزع انتزاعا؛ فأصحابها يَظهرون في الكلمة حُجَّة، وفي القول حكمة، وفي الموقف صوابا، وفي الحركة تأنّ، وفي المواجهات صبرا، وميزان عدل. ويذكّرني في ذلك مطلب الفرنسيين من شارل ديجول: الذي تولى قيادة فرنسا عقب الحرب العالميَّة الثَّانية؛ فكان سؤاله الوحيد: وكيف حال القضاء؟ فأجابوه: إنَّه بخير، ولم يصبه الدّمار الذي أصاب البلاد من جراء الحرب، فقال: إذن يمكننا إعادة بناء فرنسا"[75].

وفي مقابل هذا القول، قال غوساف لوبون: "إنَّ الشَّيء الذي يهيمن على روح الجماهير، ليس الحاجة إلى الحريَّة، وإنّما إلى العبودية؛ وذلك أنَّ ظمأها للطَّاعة يجعلها تخضع غرائزيّا لمن يعلن أنَّه زعيمٌ[76] " ومع ذلك بقي الزّعيم الفرنسي شارل ديجول على قوله: "إنَّ القبور مليئة برجال لا يمكن الاستغناء عنهم؛ فالزّعماء يرحلون، ويتركون وراءهم انطباعا: بأنَّه لا يمكن تعويضهم[77].

وعليه: فالتَّاريخ لا يصنع الزُّعماء، ولكن الزُّعماء يصنعون التَّاريخ؛ ذلك لأنَّ الزُّعماء هم من يحدثون فارقا يُمكِّن من تجاوز الأزمات، واحدًاث النُّقلة إلى ما هو مأمول دون تردُّد.

فالزَّعيم يتميَّز بحنكته، وسِعةِ أفقه، وامتلاك زمام أمره، وأمر من نربطه بهم علاقة، ويجيد حسن التدبُّر في

75 الأهرام الرقمي، الأهرام اليومي، أحمد البري.

76 غوستاف لوبون، سيكولوجية الجماهير، ترجمة وتقديم: هاشم صالح، دار الساقي، ط2، 1997م، ص 127.

77 الأهرام الرقمي، الرئيس بين الزعامة وسجن التاريخ، المصدر :الأهرام اليومي، بقلم: عزّة إبراهيم.

دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع؛ فيحسم موقفه، وأمره بما يطمئن الأنفس، ويمكّن من نيل التقدير، والاعتبار.

وفي مثل هذا الشأن، قال كارل ماركس: "إنَّ الرِّجال يصنعون تاريخهم، ولكنَّهم لا يصنعونه في الظروف التي يختارونها بأنفسهم، بل بفعل أمور فرضت عليهم من تبعات[78]".

ومن ثمَّ؛ فالزَّعيم: مَنْ يتمكّن من التفكير وهو يفكّر فيما يفكّر فيه؛ فلا يقف عند حدود الفكرة، بل يتعدّاها إلى العلل التي جعلته يفكّر فيما يفكّر، ومع أنَّه الزَّعيم الذي يفكر في هموم قومه، وما يفكّرون فيه، فإنَّه قادر على مواجهتهم فيما يفكّرون فيه إن رآهم على غير غاية.

إذن، فالزّعيم قادر على تحقيق أفعال وأعمال التحدِّي، التي لا تكون إلَّا بالحقِّ وعلى الحقِّ؛ فلا ينسب زعيم لنفسه حقًّا أُمر بأن يفعله، بل ينسبه للحقِّ تعالى؛ ولهذا فالأنبياء جميعهم عليهم الصَّلاة والسَّلام يردّون كلّ شيء يحقّقونه للحقِّ تعالى، ومن هنا؛ فجميعهم كانوا زعماء حقّ من خلال عملهم على إحقاقه تبشيرا، ودعوة، وتحريضا، وإنذارا، ووعظا، وإرشادا، وهداية، إنَّهم الرُّسُل الكرام: (الزُّعماءُ العظماءُ).

أمَّا القادة والرُّؤساء وغيرهم؛ فينسبون كلّ شيء لشخوصهم، وبرامجهم السِّياسيَّة، ومن ثمّ، لا تجد الزَّعامة فيهم مكانا تستأنسه، أو تستقر وتحلّ فيه، ومن هنا كانت

[78] الأهرام الرقمي، الرئيس بين الزعامة وسجن التاريخ.

الانتكاسة على دولة الزَّعيم، التي من بعدها جاء عصر الدَّولة الوطنيَّة.

وعليه: في دوائر التَّاريخ عناوين تبدَّلت، وتغيَّرات؛ إذ لكلِّ عصرٍ من العصور رموزه، وعناوينه الموضوعيَّة، وحُججه المنطقيَّة، والعُرفيَّة، والحضاريَّة؛ ولذلك كان لكل عصر رموزه وزعاماته؛ ففي عصر الدَّولة الإسلاميَّة كانت الرموز، والعناوين متعدّدة، ومنها: (النَّبيّ، والخليفة، والإمام، والعالم، والفقيه، والشيخ، والقدوة الحسنة)، وكان في زمن الدَّولة القوميَّة: (الشعارات، والهتافات لمقولات القائد، والبطل)، وهكذا كان الأمر في زمن الدَّول الأيديولوجيَّة، الولاء: (للحزب، ورئيس الحزب، والمرشد، والقائد، والزَّعيم)؛ ولذا كان التداخل في هاتين الفترتين من التَّاريخ بين الولاء للأحزاب، والولاء للأشخاص، أمَّا في هذا العصر فالولاء للدَّولة الوطنيَّة بدلا من الانتماء للرموز، والانتماء للمشاريع المتنافسة على أحدَاث النُّقلة إلى المأمولات، بدلا من الوعود الزَّائفة، التي كانت لا تزيد عن كونِها لحنَ قولٍ).

الدَّولة الوطنيَّة:

كان في عصر القوميَّات الانتماء المجتمعي للقوم، أينما حلَّوا، أمَّا في عصر الوطنيَّات فالانتماء الشَّعبي للوطن، أي: إنَّ العلاقة بين بني القوم علاقة اجتماعيَّة، والعلاقة بين بني الوطن علاقة شعبيَّة؛ ذلك لأنَّ الشَّعب

متنوِّع الأعراق؛ ولذا فالعلاقة بينه لم تكن علاقة دم كما هي العلاقة بين بني القوم الواحد.

فالدَّولة القوميَّة دولة مُغالبة، ولا معنى فيها للأقليَّات، أمَّا الدَّولة الوطنيَّة، فهي: دَولةُ الجميع؛ إذ إنَّ معطيات العلاقة بين أبناء الدَّولة الوطنيَّة: دستوريَّة قانونيَّة، ومن هنا، فهي: أكثر من كونها علاقة اجتماعيَّة عُرفيَّة عاطفيَّة.

ولسائلٍ أن يسأل:

ما هو الوطن؟

أقول:

الوطن هو المكان الذي تُبذر فيه الإرادة بين الشَّعب، فتنمو محبَّة، وثمارها تتدلَّى بين أيدي النَّاس تيجانا فوق رؤوسهم قِمَّة، وأصواتهم رفعةُ عدلٍ، وسلوكهم قدوة، والحُسنُ في ألوانهم قُزُحُ، والشَمسُ مظلَّة النَّاس، والأمن والقُرَّة، والملك بيد الله ثروةُ الوطن، لا عبث ولا ضُرَّة، والحقُّ صوت الشَّعب يمارسه على أرضه الحرَّة، والحِمْلُ إن ثقل على كاهل أحدٍ؛ كالريش خفَّ على الكلِّ والجُلَّة، والواجب مثل الصَّلاة والسَّلام على النَّبيّ في الشَّرع والملَّة، والموت من أجله وطنٌ، يحيي البهاء كلَّه.

فالوطن بهذه الصَّورة أنموذج لإنتاج العلاقات: مودَّة، واحتراما، وتقديرا، وتفهُّما، واستيعابا، ومشاركة؛ إذ لا إقصاء، ولا تهميش، ولا حرمان، ولا مظالم، والملكيَّة حق، لا قيود وطنيَّة عليها.

وعليه: لم يعد الوطن كما يراه البعض صنم مثل ذلك الصَّنم في العصر الجاهلي، الذي كان يتحدّثُ باسمه كاهنا لعبَّاده: (كون الصَّنم لا ينطق)، فكان الكاهن كلَّما رغب مطلبا تحدث لعبَّاده باسم الصَّنم، وفي كلِّ مرَّةٍ يقول: الصَّنم يطلب كذا وكذا، فيلبي العبَّاد مطلبه بغاية نيلهم رضا الإله: (الصَّنم)، وهنا بالطبع لم يعد المطلوب على الصَّنم في شيء، بل يعود على الكاهن، ويظل العبَّاد ينتظرون رضا المعبود من دون الله، حتى يبلغهم الكاهن برضاه، أو يبلغهم بمزيدٍ من المطالب.

هكذا بعض السَّاسة في أوطانهم يتحدَّثون، ويطلبون من الشَّعب تقديم المزيد من التضحيات؛ من أجل الوطن، وهنا إن لم يكن حال الوطن كما سبق تعريفه، فسيكون حاله كحال ذلك الصَّنم؛ فكلاهما لا ينطق: (الصَّنمُ، والوطنُ)؛ ما يجعل الفارق منعدما بين الناطق باسم الصَّنم، والناطق باسم الوطن.

ولهذا فعندما يطلب السَّاسة من المواطنين أن يُضحَّوا، ويقدِّموا المزيد من التضحيات؛ من أجل الوطن، فالتضحية هنا في حقيقة الأمر لا تزيد عن كونها تضحية من أجل صَنَم.

وهكذا بالتمام عندما يقول رئيس الحزب (أيِّ حزب) لأعضاء حزبه: عليكم أن تقدِّموا المزيد من التضحيات من أجل الحزب فهو في حقيقة أمره يريدهم أنْ يضحوا من أجله، ومصالحه، وبقائه كاهنا لصنمٍ هو (الحزب).

وعليه: لا شهداء للوطن إنْ لم يكن الوطن للجميع سكنا، وعيشا رغدا، وعدالة، وملكيَّة، وممارسة حقٍّ، وأداء

واجبٍ، وحمْلَ مسئوليَّة؛ أي: عندما يمتلك الشَّعب الوطن كلَّه تُصبح التضحيات كلُّها من أجلهم: (من أجل الشَّعب)، وعندما يمتلكه الحاكم فلا تضحيَّات إلَّا من أجل الكاهن؛ ولذا علينا أن نؤكِّد أنَّ الشَّعب هو من يمتلك الوطن، وليس الوطن من يمتلك الشَّعب، ومن هنا تصبح التضحيات واجبة الأداء، والموت من أجله يخلق الحياة، ومع ذلك علينا أن نميِّز بين: أيُّهما أولى الموت من أجل الشَّعب؟ أم الموت من أجل الوطن؟

ومن ثمَّ ينبغي أن نميِّز بين، ثلاث مفاهيم: (الإيمان، الولاء، الانتماء)، وهنا أقول:

ـ الايمان تسليم مطلق لا نسبيَّة فيه: (ومنه المستحيل، والمعجز)، وهذه لا تكون إلَّا بيد لله تعالى: (الإيمان بالله تعالى).

ـ الولاء نسب إلى أصلٍ لا خيار في النسب إليه؛ كالولاء للعائلة والقبيلة.

ـ الانتماء انتسابا عاطفيّا تُغذِّية منظومة القيم الحميدة بحيويَّة التمسُّك بالمنتمى إليه؛ كما هي العلاقة بين المواطن ووطنه.

أمَّا حال الزَّعامة في الدَّولة الوطنيَّة؛ فهي: زعامة الشَّعب بأسره: (إرادة ووعيًا)؛ أي: إنَّ الزّعامة في الدَّولة الوطنيَّة: (الدَّولة الحلّ) هي التي تحمل في مضمونها ومحتواها وضوح رؤية، وتلك الرُّؤية في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع تُمكّن من بلوغ الحلّ المأمول حقّا وعدلا.

والزّعامة المثلى في الدَّولة الوطنيَّة هي: الزَّعامة التي تجسّد القدوة الحسنة، حسنة الحُجَّة، وحسنة القولِ، وحسنة الفعل، وحسنة العمل، وحسنة السُّلوك، وحسنة المظهر.

ولهذا، لا زعامة إلَّا بقوَّة، ولا قوَّة أعظم من قوَّة الحقّ، ومن يتّبع الحقّ لا بدَّ أن يكون زعيما على القوَّة المقدّرة بين الأنا والغير؛ ومن هنا، تأخذ الزّعامات مجموعة صور، منها:

ـ زعامةُ رسالة ونبوءة: وهي زعامة اصطفاء، ووهب، وجعل، وهي لا تكون إلَّا من الله تعالى، الذي اصطفى، ووهب، وجعل من الأنبياء والرُّسُل من جعل على النبوَّة زّعامة مثلى.

ـ زعامةٌ استخلافيَّةٌ: كما هو حال زعامة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وهم: أبوبكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفّان، وعلي ابن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم جميعًا.

ـ زعامة إمامة مذهبيَّة: كما هو حال زعامة الحنيفيَّة، والمالكيَّة، والشافعيَّة، والحنبليَّة، والإباضيَّة. التي تزعّمها كلّ من الإمام أبي حنيفة، والإمام مالك، والإمام الشافعي، والإمام أحمد بن حنبل، والإمام عبد الله ابن إباض رضي الله عنهم؛ ومن بعدهم جاء الخلف من السَّلف كما جاء توليد الجديد من الجديد.

ـ زعامة علميَّة.

ـ زعامة فنيَّة وأدبيَّة.

ـ زعامة اجتماعيَّة.

ـ زعامة سياسيَّة.

إذن: الزّعامة تتجدَّد وتتولَّد قدوة من قدوة حسنة، وتعد الزّعامة مقاما متقدّما، به يتمّ تبوء المكانة بعد المكانة، وهي لا تكون إلَّا عن مقدرة واستطاعة ومهارة عالية، ولا تكون إلَّا عن حُسن معرفة، وحُسن تصرُّف، ودراية واعية بما يجب والإقدام عليه، وما لا يجب وتجنبه، والنهي عنه مع أخذ الحيطة والحذر.

وعليه: فالزّعامة في دولة المواطنة لا تكون إلَّا على أساس المعرفة والدراية التّامَّة بالأمر الدِّيني، والاجتماعي، والسياسي، والاقتصادي، والعلمي، الذي له علاقة مباشرة بحاجات النَّاس المتطوّرة والمتجدّدة، وكيفيَّة إشباعها، وحلِّ تأزُّماتها.

فالنَّاس دائمًا تقودهم الحُجَّة، التي تُجيب عن تساؤلاتهم، وتُسهِم في إشباع حاجاتهم المتطوّرة، سواء أكانت حُجَّة رسالة، أم نبأ، أم أنَّها حُجَّة فكريَّة، أم علميَّة، أم أخلاقيَّة، أم سياسيَّة، ومن هنا، يلتفّ النَّاس حول من يتزعَّمُ أمورهم، ولكن بعد أن يتعرّفوا على مقدرته وسداد رأيه، وعظمة رسالته، أو حُجّته، وسلامة أسلوبه، ومدى تطابقه فعلا، وعملًا، وسُلوكا.

ولذا؛ فمن يفرض نفسه رئيسا، أو قائدا، أو زعيما، أو ملكا، أو خليفة، أو إماما؛ وهو لا يمتلك مقوّمات الزّعامة الوطنيَّة فلن يكون ذا قيمة مقدَّرة على أيٍّ منها.

ومن ثمَّ، فمن أراد أن يُصبح زعيما في الدَّولة الوطنيَّة؛ فعليه بالقدوة الحسنة، التي تُجسّد الشّخصيَّة الوطنيَّة التزاما بسيادة الشَّعب، وإرادته الحرَّة، وفقًا للعقد الاجتماعي: (الدستور الشَّعبي)، مع حُبِّه التام لقيم: العفو، والتسامح، والصفح، والتصالح؛ من أجل حياة حاضرة مطمئنة، ومستقبل مأمول يكون أكثر اطمئنانا وجودة.

وعليه: فالزَّعامة الوطنيَّة لا عصبيَّة فيها؛ فهي تختلف عن الرّئاسة والقيادة اللتين قد تمتلآن بالعصبية امتلاء، ممّا يجعل الانحياز والتعصُّب في البلاد قيمًا فاسدة لا تنتج للنَّاس إلَّا المظالم، والمفاسد، والطغيان، والفتن. ومن ثمّ تفسد العلاقات الاجتماعيَّة، والسِّياسيَّة، والاقتصاديَّة، والأخلاقيَّة، والعلميَّة، وتتأخر البلاد عن مواكبة التقدّم والتطوّر إنسانيّا، وتقنيّا، ومعرفيّا، وعلميّا، وثقافيّا، وحضاريّا؛ ولذلك فللزّعامة صفات منها:

- صفة الاقتداء: قال سبحانه: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا}[79].

- صفة الأخلاق: قال تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاس بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[80].

- صفة المشاورة: قال عزَّ وجلَّ: {وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ}[81]، وقال تعالى: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ}[81].

[79] الأحزاب: 21.

[80] البقرة: 44.

[81] آل عمران: 159.

- صفة المحبّة: قال تباركت أسماءه: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[82].

- صفة الإرادة: قال جل وعلا: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّين قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[83].

وهكذا تتعدّد صفات الزّعامة بما تتركه من أثرٍ طيّبٍ على الأنفس، وبما يحفّز على المزيد من العمل النّافع، والعمل المبدع والمنتج، من أجل إشباع الحاجات المتنوِّعة.

ومن هنا؛ فالزَّعامة تؤدّي بأصحابها إلى عرض ما لديهم من رسالة، أو فكرة، أو حُجَّة، أو رأي، أو رؤية؛ لتكون بين النَّاس شورى، وعن إرادة حرّة؛ إذ لا إكراه.

أمَّا الرِّئاسة والقيادة فإنْ لم يصرّح أصحابها بوجوب اتباع الغير لهم؛ فيبطنونه إبطانا، ومن ثمّ؛ فالحقّ واحقاقه يتمّ تزعمه، أمَّا الباطل والظلم فأصحابهما يقودون النَّاس إليهما قيادة قهريَّة (إكراهيَّة)؛ إذ لا قيمة للإنسان في قواميسهم السِّياسيَّة.

وعليه:

فالزَّعامة في الدَّولة الوطنيَّة لا بدّ وأن يكون أصحابها محقّين للحقّ؛ وإنْ لم يُحق الحقّ تُصبح الفرقة والفتنة دليل الحكم السائد؛ فتظهر الرِّئاسات والقيادات المتعصِّبة قبليا، أو طائفيّا، أو حزبيّا، أو أسريّا، أو أيِّ شكل من أشكال

---

[82] آل عمران: 31.

[83] البقرة: 256.

النظم الدِّكتاتوريَّة، التي لا ترى طاعة إلَّا لمن هم على رأسها، وفي المقابل زُعماء الوطن هم دائمًا لا يرون طاعة إلَّا للحقِّ الذي يأملون أن يرونه سائدا بين النَّاس في الوطن، وفي أيّ مكان من العالم.

الزَّعامة قيمة حميدة لا تورّث، والهوة بينها والرئاسة والقيادة تتّسع؛ كونهما قابلتين للتوريث؛ ممّا يجعل ابن الشيخ شيخا متعصِّبا، وابن الملك ملكا متحكِّما، وابن القائد الظالم قائدا أكثر ظلما، وابن الدِّكتاتور دكتاتورا، وهكذا، يكون ابن الرّئيس سيء السُّمعة أكثر من أبيه في سوء السمعة.

أمَّا الزَّعامة كونها قيمة حميدة؛ فهي لا تورّث، بل يُقتدى بها اقتداء؛ ولهذا ينتهي الزعماء، ولا تنتهي رسالاتهم، ممّا يجعل قدوتهم وسُننهم الحسنة باقية للاحتذاء بها، وفي المقابل لا تسود رئاسة، ولا قيادة، ولا تسود قدوة لأصحابها.

وعليه:

ـ لقد انتهى زمن إرسال الرُّسُل واصطفائهم بالرَّسُول الخاتم صلوات الله وسلامه عليهم، وبقيت رسالة الكافَّة خالدة مصدرا للفضائل الخيِّرة كافَّة.

ـ لقد انتهى زمن الخلفاء الرَّاشدين، وبقي استخلاف الإنسان في الأرض خليفة.

ـ لقد انتهى زمن الدِّول القوميَّة والزَّعامات القوميَّة، وبقيت الأقوام في الأوطان مندمجة.

ـ جاء زمن الدَّولة الوطنيَّة: (زمن زعامة الشَّعب) الذي فيه الانتماء للوطن قيمة وطنيَّة.

وعليه:

فمن يرى نفسه خليفة؛ أقول له: لقد انتهاء زمن الخلافة، كما انتهى من قبلهِ زمن اصطفاء الأنبياء والرُّسُل الكرام، الذين ربطوا العلاقة بين السَّماء والأرض: (بين المستحيل والمعجز، وبين الممكن)، وهكذا لن يعود زمن الخلفاء أصحاب رسول الله عليه الصَّلاة والسَّلام؛ إذ لا وجود لنبيٍّ أو رسولٍ على قيد الحياة المشاهد، ولا وجود حيٍّ لخليفةٍ صاحب رسول الله، كما هو حال: (أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، ومعاوية)؛ ولهذا فإنَّ أحزاب وتنظيمات الإسلام السياسي التي تدَّعي بأنَّها الخليفة، أو إنَّها قادرة على إعادة نظام الخلافة الإسلاميَّة، هي كمن يرى نفسه قادرا على إيقاف التَّاريخ عند دائرة من دوائره دون غيرها؛ وذلك من خلال إدارة عجلته إلى الخلف، حتى يقف عند ذلك العصر، الذي كان فيه نظام الخلافة مناسبا في دائرة النسبيَّة، وهو ذاته النظام الذي لن يكون مناسبا لعصرنا، والعصور القادمة.

وعليه: لكلِّ دائرة من دوائر التَّاريخ خصوصيَّة ينبغي أن تُقدَّر، وتُعتبر، وتُحترم، ومِن ثمَّ ينبغي أخذ العِبر منها؛ بتجنُّب ما يجب أنْ نتجنّبه، والأخذ بما ينبغي أخذه، أو الأخذ منه.

ومع أنَّ شعوب العالم ترتقب المزيد من التقدُّم، والرُّقي الحضاري، والثقافي، والعلمي، والسياسي، والاقتصادي، والإنساني فإنَّ تنظيم الإخوان المسلمين ما

زال يأمل بسيادة نظام الخلافة الذي كان في دائرة النسبيَّة صالحا لذلك الزَّمن دون غيره، وهو الذي لن يكون صالحا لزماننا.

ومن هنا أقول: لا إمكانيَّة لمن يريد أن يعيد نظام النبوَّة؛ حيث لا تطابق، ولا تماثل مع (محمَّد)، ونظامه، وزمانه، ومن يريد إعادة نظام الخلافة الرَّاشدة فعليه بإعادة أبي بكر الصّدِّيق، وعمر بن الخطَّاب رضي الله عنهما أحياء على قيد الحياة، وفي المقابل من يريد أن يكون خليفة فعليه بالدَّولة الوطنيَّة خليفة؛ حيث الحقوق تمارس عن إرادةٍ، والواجبات تؤدَّى عن رغبة، والمسئوليَّات تُحْمَلُ مع تحمُّل ما يترتَّب عليها من أعباء جسام، أي: لا خليفة في الوطن إلَّا سيادة الشَّعب؛ إذ لا سيادة لسواه[84].

استنارةُ العقلُ فِكْرًا:

استنارة العقل فكرًا هي بما يدريه دراية، تُمكِّن من الاختيار عن وعي، والتمييز عن وعي، والعمل عن وعي، والسُّلوك عن وعي، والتقوى عن وعي، ومخافة الله عن وعي، ولهذا فاستنارة العقل مقدرة واسعة تكشف العلاقة بين السّماوات والأرض من خلال استيعاب المعجز، ومعرفة المستحيل، والبحث الممكِّن من اكتشاف المتوقَّع وغير المتوقَّع، فالعقل دراية وارتقاء قيمة تفضيليَّة خصّ الله بها الإنسان خَلقًا وخُلقًا؛ فهو في خَلقه كان في أحسن تقويم، أمَّا في خُلقه فينبغي أن يكون على الفضائل الخيّرة التي فضّلها الله، وعلى القيم الحميدة التي ارتضاها

[84] عقيل حسين عقيل، الخلاف (في دائرة التاريخ) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020، ص 21 – 56.

النَّاس: {أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ}[85].

فهكذا هو التفضيل للإنسان الذي يمشي سويًّا على صراطٍ مستقيم، والذي شاء الله أن يكون خليفته في الأرض؛ ولذا فالفرق كبير بين من يمشي مكبًّا على وجهه ومن يمشي سويًّا (مقوّمًا)؛ ذلك هو أمر الخالق ومشيئته التي شاءت التفضيل لمن يمشي سويًّا على غيره من المكِبّين؛ إنَّها الفضيلة الباقية التي لا تتبدّل؛ كونها صُنع الخالق، أمَّا المتبدّل فهي الأخلاق التي لا تكون إلَّا بيد المخلوق.

ولذا فلا إمكانيَّة لتلك المخلوقات المكِبّة والزَّاحفة أن تتطوّر وترتقي كما يظنّ بعض البحّاث لتصبح غير زاحفة، أو غير مكبّة الأوجه، وفي المقابل يمكن للإنسان الذي يمشي سويًّا أن ينحدر خُلقًا فيضل ويظلم ويعتدي بغير حقّ، ومع ذلك فلن ينحدر خَلقا ، أي: يُمكن أن تصبح أخلاق الإنسان سفليَّة ودونيَّة، أمَّا خَلقه فسيظل في أحسن تقويم، ولن يتبدّل: {صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ}[86]؛ ولأنَّه المتقن بالمطلق فقد اتقن جلَّ جلاله خَلق الإنسان في أحسن تقويم، ومع أنَّه خلقه في أحسن تقويم، فإنِّه لم يخلقه على الكمال؛ ذلك هو الإنسان الذي خُلق مسيّرًا ومخيّرًا (يصيب ويخطئ)، وبين هذا وذاك يستغفر فيُتاب عليه.

---

[85] الملك 22.

[86] النمل 88.

ولأنَ الأخلاق لا تخرج عن دائرة الممكن رُقيًا فلا استغراب أن يحدث الخطأ، بل الاستغراب ألَّا يصحّح ولا يقوّم، كما صحّحه أبونا آدم، وقوّمه ساعة حدوثه، وساعة كشف علله دراية: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}[87]؛ ذلك لأنَ الكلمات الصَّائبة تصحّح الأخطاء الواقعة دراية تامَّة وكاملة، وهذه تتعلّق بارتقاء الأخلاق ولا تتعلّق بالخَلق الذي لا يتبدّل.

وفي دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع لا بدّ وأن يقع الإنسان في الخطأ، أمَّا الاستثناء في دائرة الممكن إلَّا يُصححه، ولهذا أخذ أبونا آدم بالقاعدة، وهي: متى ما وقع الخطأ وجب التصحيح الذي يوجب تصحيح المعلومات الخاطئة بالمعلومات الصَّائبة دراية.

وعليه:

فالارتقاء قيمةٌ خُلِقَ الإنسان عليها من طين الجنَّة عندما كانت الأرض مرتقة في السّماوات: {أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقا فَفَتَقْنَاهُمَا}[87]؛ ولأنَ الإنسان الأوَّل خُلق من تراب الأرض المرتقة في السّماء جنَّة، كان خَلقهُ في أحسن تقويم: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[88].

ولذا فأساس خَلق الإنسان التقويم الحسن دلالة ومعنى وصورة، أمَّا الاستثناء إلَّا يحافظ الإنسان على حُسن التقويم الذي خُلق عليه خَلقًا، وهذا ما حدث مع أبينا آدم عندما لم يأخذ بما أُمِرَ به وهو: إلّا يأكلّ من تلك الشّجرة:

---

[87] الأنبياء: 30.

[88] التين: 4.

{وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[89].

ومن هنا جاء انحدار أبينا آدم عوضًا عن الارتقاء الذي خُلق عليه خَلقا: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ}[90]؛ حيث الهبوط على الأرض التي فُتقت من السّماوات فأصبحت أرضًا دنيا إذا ما قورنت بما بقي في علوٍّ (في السّماء)، ولكن آدم الذي خُلق على حُسن التقويم فبعد الدّراية تدارك أمره فاستغفر ربّه؛ فتاب عليه: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ}[91]؛ ولهذا فقد استثني آدم من الوجود السُّفلي كونه تاب الله عليه بسبب استغفاره ورُقي إيمانه: {إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا}[92].

وعليه:

فالإنسان الأوَّل (آدم) كونه قد خُلق في أحسن تقويم فتقويمه الخَلقي لم يتغيّر، بل الذي تغيّر هو عدم أخذه بما يبقي الأخلاق ارتقاء؛ وذلك حينما أخذ بما يغوي، وهو المنهي عنه: (إلّا يأكل من تلك الشّجرة)، فحاد آدم عن الخُلق الذي هو بيده تخييرًا، ولكن لم يحدّ عن خَلقه المقوّم تسييرًا؛ إذ لا إمكانيّة له في ذلك (إنّه صُنع الله).

---

[89] البقرة: 35، 36.

[90] التين: 5.

[91] البقرة: 37.

[92] التين: 6.

ولذا فالارتقاء عقلًا لا يكون إلَّا كيفًا؛ كونه يتعلّق بالدّراية لا بالماديَّات، وهكذا حال النُّقلة التي لا تكون عقلًا إلَّا عن معرفةٍ وعلمٍ، وهي تختلف عن النُّقلة التي لا تكون إلَّا مادَّة.

إذن: فالارتقاء عقلًا لا يكون إلَّا وعيًا، وبه يتم التمييز بين ما يجب وما لا يجب، وبه دراية يتم الاقدام على ما ينبغي، والانتهاء عمَّا لا ينبغي، ومن هنا تتحقق الرّفعة بكل ما يؤدّي إلى النُّقلة إلى الأفضل والأنفع والأجود، أي إنَّها تتحقّق بالتخلّي عن كل ما يؤدّي إلى السُّفليَّة والدّونيَّة.

ومع أنَّ خَلق الإنسان جاء على الرّفعة خَلقًا، فإنَّه أخلاقًا يقع فيما يؤدّي به إلى الدُّونيّة والسّفليَّة؛ ولذا فلا ارتقاء إلَّا بفضيلة حميدة أو قيمة خيِّرة، ولا دونيّة إلَّا بالتخلّي عن الفضائل والقيم.

ومع أنَّ أمر الارتقاء الآدمي جاء خَلقا مميّزًا عن غيره من المخلوقات وبقي متميّزًا وسيظل، فإنَّه أخلاقًا انحدر سُفليَّة؛ ذلك لأنَّ أمر الخَلق بيد الخَالق جلَّ جلاله، أمَّا أمر الأخلاق فبيد المخلوق الذي خُلق على التسيير خَلقا، وتُرك له التخيير فيما يشاء إرادة سواء أكان ما يشاءه دراية عن فضيلة وقيمة، أم ما يشاءه بلا فضيلة ولا قيمة.

ولأنَّ الخَلق بيد الخالق فلا تخيير، ولأنَّه لا تخيير فسيظل من خُلق مكبّ الوجه مكبًا، وسيظل الزّاحف زاحفًا، وسيظل من يمشي سويًّا على قوامه في أحسن تقويم، ومن ثمّ فسيظل القرد قردًا، والإنسان إنسانًا، والسّمك سمكًا.

ونظرًا لأهميّة الإنسان في الوجود الخَلقي جاء خَلقه من عجلٍ: {خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ}[93] والعجل هو الشَّيء الذي نجهله صفة، وندركه شيئًا، فقوله: (من عجلٍ) أي: من شيء مميّز، ولم يقل: (على عجلٍ) أي لم يقل (على تسرّعٍ)؛ فالخالق تعالى يخلق بالأمر لا بالجهد، ولهذا فخلقه لا تسرّع فيه، ولأنَّه لا تسرّع؛ قال: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[94]. مع العلم أنَّ العَجل في كلام أهل حمير يعني: الطّين، وهذا المعنى ينسجم مع قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ}[95]، والسّلالة هي: النّوعيّة الرّاقية من طين الجنَّة حيثما كانت الأرض مرتقة مع السّماوات في علاها؛ وذلك لأنَّ خَلق الإنسان لم يكن على الأرض الدُّنيا، بل كان خَلقه على الأرض قبل أن تُفتق عن السّماوات، ويُهبط بها دُنيا، ولهذا فالسّلالة تدلّ على أصل الخلق الآدمي من تراب الأرض المرتقة في السّماوات؛ حيث رُقي طين الجنَّة.

ومن هنا فسلالة خَلق الإنسان خاصّة به، والسّلالة تعني الجودة الرّاقية ذات الخاصيّة المتميّزة (جنسًا ونوعًا)؛ ولذا فلا عجل، ولا عبثيَّة في خَلق الإنسان الذي خُلق من طين الجنَّة، والذي جودته تصلصل ارتقاءً: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ}[96].

ولأنَّ الإنسان الأوَّل (آدم) قد خُلق في أحسن تقويم فهو من حمإٍ مسنون (من مادّة ذات جودة عالية)؛ إذ لا

[93] الأنبياء: 37.

[94] التين: 4.

[95] المؤمنون: 12.

[96] الحجر: 26.

شائبة، ومن ثمّ فلا طين يماثلها، فالطّين الذي خُلق منه الإنسان من صلصال (أرقى أنواع الطّين).

ومن هنا خُلق الإنسان مُفضّلًا على جميع المخلوقات بما فيها الملائكة والجنّ: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ}[97].

ولأنّ الإنسان هو المفضّل خَلقًا، وله ملكات العقل الدّارية، فعلّمه الله نبأ ما لم يعلمه الملائكة: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ}[98].

ولأنّ خلق آدم كان أكثر ارتقاء من غيره، سجد الملائكة إليه طاعة لأمر الله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا}[98]، أي بأسباب الخَلق ارتقاءً، وكذلك النّبأ العظيم الذي تلقاه آدم من ربّه، سجد الملائكة له طاعة للنبأ الذي أنبأه الله به.

ولأنّ الجنس الآدمي هو المفضّل رفعةً، كان آدم نبيًا للملائكة والجنّ والإنس جميعًا: (قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ) فلمّا أنبائهم سجد الملائكة إِلَّا إِبْلِيسَ (أَبَى

---

97 البقرة: 30.

98 البقرة: 34.

وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ). وإلَّا هل هناك من يشكّ في أنَّ الذي سجد الملائكة له لم يكن على الارتقاء مفضَّلًا؟

أمَّا الخَلق الثَّاني: فهو الخلق المؤسّس على النُّطفة (الماء الدّافق): {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ}[99]، وهذا الخلق هو الخَلق التزاوجي، الذي يختلف عن ذلك الخلق المصلصل، ممّا جعل السّلالة الثَّانية تختلف عن السّلالة الأولى، فالسّلالة الأولى: من طينٍ لازب، والسّلالة الثَّانية: من ماءٍ دافق مَهين: {ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَاءٍ مَّهِينٍ}[100].

ولأنَّ الإنسان خُلق على الارتقاء فينبغي أن يكون عليه قمّة وكأنَّه كبد الكون: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ}[101]، أي: خُلق الإنسان على المحبّة تميُّزًا فينبغي أن يكون عليها كبدًا تتألم مع من يتألم، وتأمل الخير مع من يأمله، وتعمل في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع على تحقيقه، وكذلك ينبغي أن تسعد مع من يسعد، وتسعى خيرًا استقامةً واعتدالًا ولا مظالم، فتجمع ما تفرّق من أجل إعادة قيمة الإنسان وحفظ كرامته، وما يؤدّي به إلى الرّفعة والارتقاء دراية.

وعليه: تعدّ الأخلاق نتاج الفضائل الحميدة، والقيم الخيّرة، التي تستمدّ من الأديان والأعراف ارتقاء، فبها يرتقي الإنسان قولًا وفعلًا وعملًا ومعرفةً وسُلوكًا؛ من أجل

---

[99] النحل: 4.

[100] السجدة: 8.

[101] البلد: 4.

علاقات اجتماعيَّة وإنسانيَّة مؤسّسة على نيل التقدير والاعتبار.

وبما أنَّ الإنسان أساس خَلقه الارتقاء (في أحسن تقويم) فإنَّ غايته الارتقاء خَلقًا إلى ما يجب، ومع أنَّ الأخلاق بيد النَّاس، فإنَّ بعضهم يخسرها بلا ثمن؛ ولذلك فالإنسان الأوَّل قد خُلق من تراب الجنَّة، وظل على خَلقه سلالة بشريَّة تمتدّ بين طينٍ لازب وماء دافق، ولا انحدار عن الخَلق المقوّم ولا تطوّر من بعده، فالإنسان هو الإنسان، ولكن الانحدار والتطوّر في دائرة الممكن هو بين متوقَّع وغير متوقَّع، فآدم وزوجه خَلقًا في الجنَّة من تراب الجنَّة، ومع ذلك تعرّضا لإغواءٍ جعلهما على حالة من الانحدار عن القيم؛ حيث عدم التزامهما بالأمر النَّاهي عن الأكل من تلك الشَّجرة المنهي عنها: {فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[102].

ولذا فإنَّ البقاء في الجنَّة بقاء فضائل خيّرة وقيم حميدة، فمن لا يكون عليها لا يكون فيها، فحتى آدم عليه الصَّلاة والسَّلام الذي خُلق في الجنَّة خَلقًا أُهبط به على الأرض الهابطة إلى الحياة الدُّنيا؛ وذلك بأسباب معصيته وميله لوسوسة من أغواه شهوة.

ولأنَّ الأخلاق يتمّ تشرّبها فضائل خيّرة فبعد أن تَلقّى آدم كلمات من ربّه ترشد إلى التي هي أقوم تاب الله عليه دراية: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ

---

[102] البقرة: 36.

التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[103]، ومع ذلك صدر الحكم عليه والأرض ومن عليها من المخالفين أن يهبطوا من علوٍّ وارتقاء إلى سفليَّة ودونيَّة: {قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جميعًا}[104].

ولأنَّ الهبوط كان نتاج الانفتاق العظيم فهو خروج من الجنَّة؛ حيث ظلّت الجنَّة في العلو رُقيًّا، وظلّ آدم ومن معه من المخالفين والعصاة (الإنس والجن) يحيون الحياة الدُّنيا على الأرض الدُّنيا، وفي المقابل بقي الملائكة الطّائعون في علو الجنَّة ارتقاءً، ولا يتنزّلون إلى الأرض الدُّنيا إلَّا تنزيلًا؛ لأداء مهمَّة تربط أمرًا بين السّماء والأرض، ونحن نجهله فلا ندريه: {لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ}[105].

ولأنَّها الأرض الدُّنيا وحياة المخالفين والمختلفين عليها مملوءة وسوسة وإغواء، إذن فلا إمكانيَّة لأن تكون فيها الحياة آمنة مستقرّة لو لم تتنزّل الرّسالات والأنباء الواعظة، والنّاهية، والآمرة، والمحذّرة، والمنذرة، والمبشّرة بما هو أمل يشبع حاجة ويرضي رغبة؛ وذلك من أجل علاقات إنسانيَّة تنظّم أساليب الحياة ارتقاءً، وتُلفت المختلفين إلى ما يؤدّي بهم إلى الاتعاظ، ويمكّنهم من أحدَاث النُّقلة وبلوغ القمّة دراية.

فَأُنزلت الرّسالات دراية تأمر وتنهى: {وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ

---

[103] البقرة: 37.

[104] البقرة: 38.

[105] القدر: 3 ـ 5.

اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[106] ، بمعني: يجب أن يكون الإنسان على الأخلاق الكريمة أينما كان، سواء أكان آدم وزوجه في الجنَّة ارتقاء، أم أصبحا وبنوهم على الأرض انحدارًا، غير أنَّ الحياة العليا بعد تلك الإغواءات قد جُرّدت من النقائص والحاجات التي أثّرت انحدارًا على الإنسان الأوَّل (آدم) ومَن شاركه في المعصية أو حرّضه عليها، وأصبحت الحياة هناك ارتقاء كاملًا.

أمَّا بعد الهبوط فَالفتن لم تنته، بل تكاثرت مع التزاوج والتكاثر، فالصِّدامات والخصومات بين أبالسة وشياطين الإنس والجنّ استمرّت بلا انقطاع، ومع ذلك فإنَّ بقاءها في الحياة الدُّنيا هو بغاية الاتعاظ، وأخذ العبر من ذلك الإغواء الذي كان سببًا في هبوط المخالفين من الحياة الرّاقية إلى الحياة الهابطة.

ولأنَّ مخالفة آدم وزوجه لِمَا نهى الخالق عنه: (الأكل من تلك الشّجرة قد أخرجهما من الجنَّة) فظلّ هذا الدّرس شاهدًا على ما يمنع بني آدم من أن يدخلوا الجنَّة، أي بما أنَّ تلك المخالفة قد أخرجت آدم وزوجه من الجنَّة، إذن فكيف لبني آدم من دخولها؟

أقول:

قال تعالى: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[107].

[106] البقرة: 190.

[107] الأنعام 160.

ولأنَّ أمر الهبوط كان أمرًا حاسمًا لمخالفة جرت في الجنَّة إذن ألا يعدّ أمر الهابطين أمرًا حاسمًا في عدم الدّخول إليها؟ وهل من مُخرجٍ من هذه الأزمة وأنَّ معظم الخَلق لهم من المخالفات ما لهم على الانحدار والدونيَّة؟

أقول:

قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جميعًا}[108].

من هنا وجب إعمال العقل دراية حتى التبيّن وعيًا دون إكراه، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر؛ ولذا وجب قول الحقّ وترك النَّاس أحرارًا يختارون ما يشاؤون إرادة، ولكن إن حدث الانحراف فوجب الإصلاح الذي يستوجب البدء مع المنحرفين من حيث هم: (جهلًا أو تعلّمًا)؛ وذلك من أجل بلوغ الإصلاح، أو بلوغ الحلّ ارتقاء وعن دراية.

ولأنَّ الأخلاق ارتقاء هي أساس المعاملة الحسنة فالأخذ بها عقلًا ودراية لا شكّ أنَّه يجعل الإنسان على المحبَّة، بدلًا من أن يكون على الإكراه الذي لا يترك إلَّا ألما: {أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاس حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ}[109]، أي: فلا داعي أن يضيق صدرك يا نبي الله وأنت تعلم أنَّ مشيئة الخالق هي الفاعلة: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جميعًا}[110]؛ لذلك كان محمَّد عليه الصَّلاة والسَّلام داع إلى سبيل الحقّ بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا إكراه،

---

[108] الزمر 53.

[109] يونس: 99.

[110] يونس: 99.

وهذه عين الأخلاق دراية وارتقاء، فالأخلاق تعد قيمة ارتقاء في ذاتها، وهي عندما تتجسّد في السّلوك يصبح سلوكها قمّة، ومن هنا فمن أراد أن يكون قمّة فعليه بعقله دراية.

ولأنَّ الارتقاء خَلقًا لا يكون إلَّا بيد الخالق فقد خَلق الخَالق آدم في أحسن تقويم من غير أب ولا أم (من تراب الجنَّة الصلصال)؛ إذ لا إنس من قبله، ولأنَّه كذلك جعله الله على الارتقاء نبيًا؛ فسجد له الملائكة طائعين، إلَّا إبليس، ومع أنَّ آدم قد خُلق في الجنَّة والأرض مرتقة في السّماوات، فإنَّه بمخالفة أمر الخالق أُهبط به والأرض، وكذلك معه من كان سببًا في إغوائه ومعصيته، وأيضًا من قَبِلَ الإغواء معه معصية (زوجه)، وهنا تكمن العلّة التي دعت آدم ندمًا واستغفارًا وتوبةً، ولكنَّ قرار الهبوط نافذ: {قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ}[111].

ومع أنَّ آدم تاب لربّه دراية، فإنَّ توبته لم تَحُلْ بينه والهبوط على ظهر الأرض إلى الحياة الدُّنيا بعد أن كان على أرض النّعيم قمّة وارتقاء، فآدم عصى ربَّه، ثمّ تاب؛ فتاب الله عليه، ثمّ اجتباه نبيًّا؛ لِيُنبئ من بُعث إليهم نبيًّا: {ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى}[112]، وهنا يكمن أمل آدم في العودة إلى الجنَّة ارتقاء؛ تلك الجنَّة التي فقدها ولم يعد يراها نعيمًا على الأرض المغبرّة التي أُهبط بها أرضًا، ولكن كيف يعود آدم إلى ذلك النّعيم الوافر؟

[111] الأعراف: 24.

[112] طه: 122.

لا سبيل له عقلًا ودراية إلَّا الاستغفار عن معصيته، والتَّوبة إلى خالقه؛ ففعل ذلك عن قلب؛ فاجتباه ربَّه نبيًّا، وعلّمه ما لم يكن يعلم، ومن ثمَّ أدرك آدم دراية أنَّ فرصة العودة إلى الجنَّة بعد توبته أصبحت ممكنة إن عَمِلَ وأتقن عمله عقلًا ودرايةً.

ولذلك فَمِن بعد آدم أصبح العمل هو الممكِّن من أحدَاث النُّقلة وتحقيق الارتقاء دراية ورفعة، فتلك الجنَّة التي خُلق فيها آدم لم يرها ابناه، فهما ولدا في الحياة الدُّنيا (السّفليّة)، ولكن إنباء أبيهما أصبح بينهما حُجَّة وموعظة وعبرة، فبدأ العمل دراية وارتقاء من أحدهما، وهو يأمل بلوغ ما أنبأه به أبيه الذي شهد ذلك النّعيم فأخذ بالنبأ وأمل الارتقاء إلى النّعيم نصب عينيه، وفي المقابل أخاه أخذته الشّهوة انحدارًا وسُفليَّة؛ فقتل أخاه في الوقت الذي يبسط إليه أخوه يده محبّة: {لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[113].

وعليه:

فالارتقاء عقلًا ودرايةً مؤسّس على الفضائل الحميدة والقيم الخيّرة؛ وذلك ارتفاعًا عن كلِّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الانحدار والسُّفليَّة، حتى بلوغ ما يُمكِّن من إحداث النُّقلة الممكِّنة من بلوغ الجنَّة عيشًا رغدًا، ومن هنا وجب

[113] المائدة: 28 ـ 30.

عمل العقل عن دراية بالعمل المحقّق للعيش النّعيم، الذي فيه الوفرة:

- تغذي الرّوح نشوة.
- تطمئن النَّفس سكينة.
- تخاطب العقل دراية.
- ترضي القلب يقينًا.
- تشبع البدن حاجةً.
- تزيد الذّوق رفعة وارتقاءً.

وعليه: فإنَّ الحياة الدُّنيا درايةً عقليَّة إذا ما قورنت بتلك الحياة العليا فهي حياة الحاجات المنقوصة، وحياة الفتن والعداوات التي بدأت أوَّل ما بدأت بين الأخوين (ابني آدم)، ثمّ اتّسعت وتكاثرت مع التكاثر فأصبح الصِّدام والاقتتال انحدارًا من بعض النَّاس، وفي المقابل يرتقي بعضهم رفعة؛ فآدم الذي خسر ذلك الموقع الرّفيع، أصبح يأمل العودة إليه دراية؛ ولذلك فقد سعى استغفارًا وتوبة أهَّلته لأن يكون نبيًّا ينبئ بما عُلّم به من قِبل خالقه، ومن ثمّ فلا مكان له بعد النبأ العظيم إلَّا الجنَّة، التي لا تبلغ ارتقاء إلَّا بالعمل الصّالح عقلًا ودرايةً.

ولذلك أصبح العمل رفعةً أمل المصلحين السّاعين إلى الكسب الحلال بلا حدود، من أجل العيش الرّغد؛ ولذا فالسّاعون رفعةً مهما بلغوا من المراتب والقمم فهم يأملون مراتب عظيمة من بعدها قمّة أعظم، ولهذا وجب

اتقان العمل إخلاصًا ودراية، حتى الارتقاء بالأرض الدُّنيا ورتقها في السّماء جنَّة.

ومن هنا وجب العمل الممكِّن دراية من بلوغ الأحسن والأرقى، شريطة ألا يكون التحسّن على حساب إشباع حاجات الغير، بل ينبغي أن يكون العمل تُرسًا من تروس عجلة الحياة العامّة؛ ذلك لأنَّ الارتقاء الممكّن من العمل المرضي لا يُمكن أن يتحقّق والغير يتألم؛ ولذلك فالعمل وفقًا لأهداف الحياة ينبغي أن يكون من ورائه غرض خاصّ وهو: إحداث النُّقلة عن درايةٍ، وغرض عام يُحفِّز الآخرين ويدفعهم للرّفعة، وإلَّا فألم الغير لن يفسح الطريق أمام من يسعى إلى الارتقاء غاية وهو لا يدري.

وعليه: فبنو آدم في دائرة الممكن هم بين متوقَّع الارتقاء عقلًا ودرايةً، ومتوقَّع الدّونيَّة غفلةً وشهوةً، ومن جهة أخرى هم يتبدّلون؛ إذ لا ثوابت فمنهم من يبقى على الارتقاء، ومنهم من يتخلّى عنه، ومنهم من نراه في دونيَّة، ولكن من بعدها يبلغ القمم ارتقاء؛ ولذلك ينبغي العمل مع بني آدم من حيث هم، من أجل الارتقاء بهم إلى ما ينبغي أن يكونوا عليه دراية عقليَّة واعية.

ومن ثمّ ينبغي على بني آدم عند رسم السِّياسات أن يجعلوا وراء كلّ هدف غرضًا، من ورائه أغراض تحقّق لهم المكانة والرّفعة، أي تحقّق لهم المكانة الشّخصيَّة قدوة، وتحقّق لهم الكرامة الآدميَّة فضيلة، وتحقّق لهم العيش السعيد قيمة، ولكن إن لم يعملوا ويفعلوا فلا شيء لهم إلَّا البقاء على الرّصيف بين حاجة وشُبهة، وهنا يكمن الانحدار عِلَّة.

إذن: فعلى العقل الآدمي درايةً أنْ يعي بإمكانيَّة بلوغ السّماء ارتقاء كلّما عمل وفقًا لأهداف تنجز، وأغراض تتحقّق، وغايات يتمّ بلوغها، ومأمولات يتم نيلها، ولكن إن أحسّ العقل وهو منفردًا بشيءٍ من التّعب، فعليه بوضع اليدين مع الأيدي صعودًا وارتقاءً.

فالارتقاء عقلًا ودرايةً مثل المعمار ينبغي أن يُبنى لبنة فوق لبنة (قيمة فوق قيمة، وفكرة من بعد فكرة، وهدف فوق هدف، وغرض فوق غرض، وغاية من فوقها غاية، وأمل من بعده مأمول أعظم)، ولكن في المقابل هناك من يهدم المعمار رأسًا على عقب، وهناك من يهدّه لبنة بعد لبنة، فالصّراع بين بني آدم لن ينتهي بين البناة رُقيًّا، والهادمين له انحدارًا؛ ولأنَّ الخالق خلقنا على الاختلاف فلا بدَّ أن نظل عليه مختلفين: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاس أُمَّة وَاحِدَة وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ}[114]، ولهذا فالصّراع والصِّدام بين أهل العقول والدِّراية وبين أهل الشّهوة والتمدُّد على حساب الغير سيظل ساريًا صراعًا بين حقٍّ وباطلٍ.

ولذا فإنَّ الاختلاف الذي خُلقنا عليه وسنظل عليه مختلفين قيمة خيّرة، هو اختلاف التنوّع المشبع للحاجات المتطوّرة عن رغبة وإرادة، ولكن هذا الإشباع لا ينبغي أن يكون على حساب ما يشبع حاجات الآخرين؛ ولذلك يجب أن تحدّد الأهداف والأغراض والغايات بعيدًا عن كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الخلاف الذي فيه الاقتتال والفتنة، أي ينبغي عقلًا ودرايةً أن تحدّد الأهداف

[114] هود: 118، 119.

وفقًا لما يجمع شمل المتفرّقين خِصامًا، ويحلّ تأزُّماتهم، ويشبع حاجاتهم المتطوّرة عدلًا وارتقاءً.

وعليه: فمن أجل الارتقاء قمّة ينبغي الابتعاد عمّا يؤدّي إلى الاقتتال والفتن، فالاقتتال والفتن ضياع فرصة، والزَّمن لا يعطي الفرصة مرّتين، ومن ثمَّ يجب عدم إضاعة الفرص كلّما سنحت الظّروف دراية وارتقاء، ومن يضيّعها سيجد نفسه على غفلة من أمره، وحينها لن ينفعه النّدم، فالنّدم عندما تضيع الفرص قد يؤدّي بأصحابه إلى الهاوية، ولكن إن كانت الفرص لا زالت سانحة فالنّدم دراية يؤدّي إلى تصحيح المواقف الخاطئة بمواقف صائبة، أي متى ما غلبت الشّهوة عقل الإنسان انحدر غفلة، ومتى ما قوي عقله دراية ارتقاء تذكّر، فاتّعظ واعتبر، ومتى ما تدبّر عمل وأنتج، ومتى ما فكّر دراية حدّد أهدافًا من ورائها أغراض، وغاية من ورائها مأمول يتم نيله.

إذن: وجب التدبُّر دراية بما يبعد بني آدم عن الجلوس على رصيف المتسوّلين، فالتسوّل يؤخّر أصحابه عن الالتحاق بأهل العقول والدّراية، وفي المقابل لا ينبغي أن تجرّ العاطفة أصحابها إلى دعم مواقف المتسوّلين (الذين يتخذون التسوّل مصدرًا للعيش)، بل العقل المتدبّر لأمره يجب أن يدفع أصحابه إلى ما يُمكّن المتسوّلين من المشاركة في العمل المنتج، الذي يحفّزهم على تنمية قدراتهم وتوجيهها وفقًا لما يحقّق لهم الارتقاء نهضة ورفعة، فيخلّصهم من التسوّل إرادة وعملًا، وكذلك لا ينبغي أن يضع بنو آدم أنفسهم في مواقف الاستعطاف، ولا ينبغي لهم الأخذ بالعاطفة فيما يؤسّس إلى ترسيخ

الفضائل والقيم وبناء الدّولة، فرجالات الدّولة كلّما أخذتهم العاطفة أخّرتهم عن إنجاز الأهداف السّامية، والأغراض الرّفيعة، والغايات العظيمة، والمأمولات قمّة وارتقاء.

فرجالات الدّولة عقلًا ودرايةً هم من لا تأخذهم العصبيّة؛ ذلك لأنَ العصبيّة مقبرة الذين لا يعلمون، فرجالات الدّولة دراية وارتقاء كلّما حكموا عدلوا، وكلّما قالوا صدقوا، وكلّما عاهدوا أوفوا، وكلّما كَبِروا تواضعوا، أمَّا المدّعون لذلك فهم مع كلّ هبّة ريح يميلون، وهنا تكمن علّتهم وسفليَّة الدَّولة ودونيَّتها.

فقيام الدّولة ورفعتها ارتقاء لا يكون إلَّا عن عقلٍ ودرايةٍ، ولهذا ينبغي أن يتم استهداف رجالات بعينهم لإدارتها وفقًا لما هم عليه من مكانة ودراية وخبرة وتجربة ومهنيّة، ومع ذلك ينبغي أن يتم اخضاعهم للتقييم قبل أن يتمّ اختيارهم إلى مناصب إداراتها، وكذلك فهم بعد الاختيار يقوّمون كلّما حادوا عن الدّراية قيمًا وفضائلًا؛ وذلك أوّلا: بهدف إعادتهم إليها ارتقاء، وثانيًا: محاسبة من أنحرف منهم عن قيم حَمْل المسئوليَّة التي تم اختيارهم إليها إرادة.

ومن ثمّ فمن يرى نفسه رجل دولة فعليه باختبار نفسه وتقويمها قبل أن يُختبر ويقوّم من قِبل الغير.

فبنو آدم سواء أكانوا رجالات دولة، أم مواطنين كرام يدركون أنَ السّبيل إلى النّجاح هو الارتقاء عن كلّ شيء يؤلم، أو يؤزّم العلاقات، أو يؤدّي إلى تفكّك اللحمة الاجتماعيَّة، أو الوطنيَّة، أو الإنسانيَّة، أو يمسّ معتقدًا دينيًّا، ومع ذلك فهناك من يجهل ويغفل، فيقع في فخّ مصيدة

الغاوين والمزيّنين والمضللين، التي تزداد ضيقًا على رقاب من يقع في فخّها كلّما حاول أن يرى نفسه غير مختنقٍ.

ومع أنَّ للألم أوجاعًا، وللتأزّم أوجاعًا، فإنَّ أكثر الأوجاع بين بني آدم ما يتركه الغدر والخيانة من ألم، فآلام الغدر والخيانة لا تموت، حتّى وإن سامحك من أجرمت في حقّه؛ ولذلك وجب الدِّراية وأخذ الحيطة والحذر، حتى لا يحدث الوقوع في فخّ المصيدة مرّتين.

أمَّا الحقد بين بني آدم فهو مثل حطب نار جهنّم يحترق قبل أن يحرق غيره، أي إنَّ نار الحقد تحرق أوَّل ما تحرق حطبها (الحاقدين)؛ ولذلك فالحقد يُلهي الحاقد من بني آدم في نفسه، والحاقد في حقيقة أمره في حاجة لمن يطفئ عنه النَّار التي بها نفسه تحترق، ومن ثمّ فمن يعتقد أنَّه إذا تمكّن من عضّ يد أحد وعضّها، فلا شكّ أنَّ عضَّ اليد يفكر الآخر في أنيابه إن لم تكن له مخالب.

ولذا فإنَّ الجهل والحقد والظّلم والعدوان والكيد والمكر عندما تشتعل نيرانها بين بني آدم فلا سبيل لهم إلَّا التخلّف، والانحدار، والسّفليَّة المؤلمة، وفي المقابل الشّعوب دراية ترتقي علمًا ومعرفةً وتسامحًا وخبرةً وتجربةً، فتغزوا الأرض سلامًا، والسّماء بحثًا وارتقاءً.

وعليه: فبنو آدم بلا عقل ولا دراية وبلا أمل لا يعدّون إلَّا أمواتًا وهم على قيد الحياة، والذين يأملون الارتقاء ولا يعملون من أجله فسيبقون على أملهم وكأنَّهم بلا أمل، أمَّا البعض الذي يأمل ويعمل ويفعل فلا شكّ أنَّه سيُسهم في أحدَاث النُّقلة دراية وارتقاء، وفي المقابل هناك من

يهدم وهو لا يعتقد أنَّ الهدم سيقع على رأسه وكأنَّه بلا رأس.

وهكذا بلا عقول ولا دراية هناك من يصدّق كلّ ما يقال، ثمّ يحمّسه بين بني آدم مثلما يحمّس القمح في الحمّاس؛ ولذلك لا ينبغي أن يكون بنو آدم سماعيّين فيصدّقون كلّ ما يقال، بل عليهم بالتذكّر اتعاظًا، وعليهم بالتدبُّر تحليلًا وتفسيرًا وتخطيطًا وسُلوكًا وعملًا، وعليهم بالتّفكّر دراية من أجل ما يجب حتى يتمكّنوا من الارتقاء من خلال ما يمارسونه من حقوق عن رغبة، وما يؤدونه من واجبات عن إرادة، وما يحملونه من مسؤوليّات وهم متحمّلون كلّ ما يترتّب عليها من أعباءٍ جِسام.

وعليه:

فارتقاء بني آدم مؤسّس على ما أخبرهم وأنبأهم به أبوهم آدم، ومن بُعث من بعده من الأنبياء والرُّسُل صلوات الله وسلامه عليهم؛ ولهذا فهم يأملون العيش في ذلك النّعيم المنبئ عنه؛ ولأجل ذلك فمن آمن منهم وعيًا ودراية يسعى ويعمل من أجله ارتقاء، ومن لم يؤمن ستظل فُرصه على قائمة الانتظار ما بقي حيًّا.

فبنو آدم عقلًا ودرايةً من أجل تلك الجنَّة التي وُصفت بما وُصفت به من عظمة، يصلّون لله من أجل بلوغها، ويصومون ويزكّون ويتصدّقون ويحجّون ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم من أجل بلوغها؛ ولذلك هم يصلحون أحوالهم ويعفون ويصفحون من أجل بلوغها، ويتعلّمون ويعملون من أجل بلوغها، ومع ذلك فهم في حاجة للمزيد المعرفي الممكِّن من زيادة الارتقاء قمّة،

وخير وسيلة لذلك المزيد من البحث العلمي والمعرفي في الكون المتسارع اتساعًا وتمدّدًا.

وهنا أقول لبعض علماء الفيزياء وعلماء الفلك: ما قد تمّ اكتشافه عن الكون من قبلكم قد أخبرنا به القرآن الكريم الذي أنزل قبل أن يفكّر أحد في غزو الفضاء، وقبل أن يتمّ اكتشاف أسرار من الكون؛ ولذا فَلِمَ لا تتوقّفون عند الكتاب لتتبيّنوا قوله لعلكم ترشدون إلى المزيد من الاكتشاف العلمي عقلًا ودرايةً، والى ما يُمكّن من الارتقاء من أجل بني آدم (النَّاس جميعًا)، ومن هنا فإن كنتم أهل موضوعيَّة فلا يليق أن تتجاهلوا كتابًا يملأه العلم والبيّنة والدّراية؛ فأنا لا أقول لكم: ادخلوا الإسلام، ولكن أقول: أنتم أهل علم، وها هو مصدر ثمين يملأه العلم آية ومن بعدها آيات.

وعليه: فالارتقاء بالنّسبة إلى بني آدم هو: أملٌ قابلٌ لأن يتحقّق ويتمّ بلوغه، ولكنّ مفهوم الارتقاء غاية لا يتّضح إلَّا بمقارنة بين العُليا والدُّنيا؛ فالعُليا هي السّماء وما فيها من نعيم الجنَّة وبقاء الحياة، أمَّا الدُّنيا فهي الأرض وما عليها من مخلوقات وزوال الحياة؛ ولذا فـبين هذا وذاك وجد الإنسان نفسه بين التّخيير تارة، والتّسيير تارة أخرى، فالتّخيير (تؤمن أو لا تؤمن، تعمل صالحًا أو تعمل طالحًا، تَصدُق أو تكذب أو تنافق أو تدّعي ما تشاء....)، أمَّا التّسيير فلا خيار لأحدٍ فيه (حياة أو موت، شروق أو غروب، برق ومطر ورعد وصواعق وزلازل وبراكين وتمدّد كوني متسارع، ومفاجآت عظيمة....).

ولهذا فالارتقاء قمّة يمكّن بني آدم عقلًا ودرايةً من العيش الرّغد في الحياة الدُّنيا (الزَّائلة) ويمكنّهم من العيش السّعيد في الحياة العليا (الباقية)، فبنو آدم عقلًا وتدبُّرًا لا يقصرون أملهم على الحياة الزّائلة، التي يصرّون على أخذ نصيبهم منها، بل يربطون أملّ عيشهم فيها بأمل العيش في الحياة الدّائمة؛ ومن هنا فهم يعملون ويسعون إلى بلوغ المزيد المرضي ارتقاء.

إذن: فالإنسان ينبغي أن يعيش والأمل لا يفارقه؛ فإن فارقه الأمل فلا معنى للحياة، فالله خلق أبانا آدم في النّعيم؛ ليعيش وبنوه حياة النّعيم، ولكن بأسباب الإغواء والمعصية أفسد حياته الباقية بالحياة الزَّائلة (الحياة المنقوصة)؛ حيث الفقر والألم والفاقة والمرض والتعرّض للمفاجآت والموت، ومع ذلك وجب العمل الممكّن من بلوغ الحلّ رفعةً ونهضةً.

ولسائل أن يسأل:

أيّ حلّ تعني؟

أقول: حلّ أزمة الحياة الدُّنيا، التي تتطلّب العمل عقلًا ودراية بهدف النّهوض، وغرض الارتقاء، وغاية بلوغ القمّة (الحياة الباقية)، ثمَّ نيل المأمول جنَّة؛ ولهذا فلا ينبغي أن يرضى بنو آدم بالفقر، فالفقر مرض ينبغي القضاء عليه بالعمل المنتج؛ ولذا فلو عمل بنو آدم جميعهم لما وجد الفقر مكانًا له على الأرض، ولأنَّهم لا يعملون جميعًا فسيظلون فقراء مهما استغنى منهم من

استغنى[115].

ومع أنَ الاستنارةَ قيدُ أخلاقيٌّ على المستنير، فإنَّها أيضًا قيدٌ له في ميادين البحث العلمي؛ ومن هنا يختلف مفهوم القيد (على المستنير) عن مفهوم القيد (للمستنير)، فالقيد على المستنير يستوجب خضوعه أو إخضاعه من قبل النّصوص أو من قبل الغير، أمَّا أن تكون الاستنارة قيدًا له؛ فهي الاستنارة القابلة للاستخدام من طرفه وعيًا؛ كونها استنارة معرفة ودراية.

فاتباع الباحث المستنير لخطوات البحث العلمي تتطلَّب منه التقصّي للمعلومة وفقًا لقيود قواعد البحث ومناهجه وأساليبه الموضوعيَّة، وهذه مع أنَّها خطوات مقنّنة وبين يديه مَقيَّدةٌ، فإنَ استنارته العلميَّة قد تُمكِّنه من تجاوزها بحثًا إلى بلوغ الخوارق استنارة.

وعليه: بقدر ما تكون الاستنارة قيدًا على العقل تكون هي الممكِّنة له من كسر القيد.

والعقلُ في زمن الانتظار غفلة لا يكون إلَّا أميّة بلا رؤية، أمَّا العقل في الزّمن بلا انتظار صحوة فلا يكون إلَّا دراية واستنارة؛ ذلك أنَ العقلَ دراية هو تلك الحيويَّة المستنيرة وعيًا، وهو الذي يعلم بالشَّيء بعد أن كان لا شيئًا مجهولًا، كما أنَّه يعلم الحكمة التي تخفي من ورائها سرًّا.

---

[115] عقيل حسين عقيل، العقل من اللاشيء إلى الشيء دراية، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م/ ص 6 – 27.

والعقل دراية واستنارة ليس ذلك العقل الممنهج برؤية تعليميَّة ولا رؤية ثقافيَّة، بل هو ذلك العقل المتجاوز لدائرة الممكن تحدٍّ وخوارق، إنَّه العقل الممكَّن من دخول دائرة المعجز التي تدريك بكل شيء بين البداية والنِّهاية دون أن ترى أيّ منهما (البداية والنِّهاية).

ومع أنَّ الاستنارة عمليَّة عقليَّة فإنَّ مَن تمكَّن منها تمكَّن من طي صفحات الأميَّة إلى الأبد، ومع أنَّ الدّراية استنارة لا تُعلَّم فإنَّ علومها تُعلَّم؛ فعلى سبيل المثال: دراية النَّبيّ محمَّد جعلته على نُقلة من الأميَّة إلى الدّراية التَّامة، أي إنَّ ذلك النَّبيّ الأمّي بعد أن أعلمه الله بالمعجزات أصبح نبيًّا يعلم ما لم يعلمه غيره، ومن هنا أصبح محمَّدُ نبيًّا ومعلّمًا يعلم ويعلِّم غيره ما أُنبأ به إنباءً، وهو المعجز الذي لا يبلغه البشر إلَّا بأمر من العليم الحكيم.

ولذا فالأميّ هو الذي لا يدري ولا يعلم بما لم يُعْلِم به، والنَّبيّ الأميّ هو محمَّد الذي لم يدرِ ولا يعلم بأمر الرِّسالة التي كُلِّفَ بها قبل تنزيلها عليه تنزيلًا؛ ومن ثمَّ فالذي لا يعلم بالشَّيء لن يكون له من الشَّيء شيئًا به يدري، أمَّا الذي يَعلَم فإنَّه يُعلِم بما أُعلِم به ويُعلِّمَه لمن هم لا يعرفونه ولا يدرون.

ومع أنَّ اللُّغويين كما جاء في لسان العرب قد عرَّفوا الأميّ أنَّه: "المنسُوب إلى ما عليه جَبَلَته أُمُّه، أي لا يَكتُبُ، فهو لأنَّه لا يَكتُب أميّ؛ لأن الكِتابة مُكْتسَبةٌ؛ فكأَنه نُسِب

إلى ما يُولد عليه، أي على ما وَلَدَته أُمُّهُ عليه"[116]، فإنَّنا نرى في المقابل أنَ الأميَ ليس كذلك، بل هو مَن لا دراية له بما لا يُعلم به، ومن هنا فلا علاقة بين الأمّي وعدم معرفة القراءة والكتابة، فهذه العلاقة لا تكون إلَّا بين الجهل والتعلّم، أو بين التّيه والمعرفة، أمَّا الأميَّة فليس لها علاقة إلَّا بعدم الدِّراية والاستنارة؛ ومع ذلك فإنَّها حالة غير دائمة وهي قابلة للإزالة من الجميع في دائرة الممكن المتوقَّع وغير المتوقَّع.

وعليه: فالعقل من حيث ملكاته هو العقل، سواء أكان في زمن الانتظار أميَّة، أم أنَّه في زمن السِّباق صحوة (العقل هو العقل)، ولكنَ الدّراية استنارة في زمن السِّباق صحوة اختلفت عمَّا كانت عليه في زمن الانتظار أميَّة؛ ذلك أنَ الدّراية لا تكون إلَّا استنارة وقد قدحت بنورها في عقل من تمّ اصطفاؤه للأميين نبيًّا.

والأميين هنا ليس كما يظن البعض من النَّاس أنَّهم أمَّة العرب فقط، بل هم كل الذين لم يعلموا من الرِّسالة الخاتمة إلَّا أنَّها رسالة وستنزَّل على نبيٍّ اسمه أحمد.

ومن هنا نعرف أنَ الأميَّة كانت على العقل قيدًا وقد كُسرت بالرِّسالة الخاتمة بعد أن أدرى الله بها محمَّدًا - عليه الصَّلاة والسَّلام، واستناره بها معجزة وحكمة، وهو النَّبيّ الذي جاء داريًا بها وللنَّاس كافة مبشّرًا ونذيرًا.

---

116 لسان العرب، ج 12، ص 22.

ومن هنا فالعقل أميَّة كان عقلًا بشريًّا عصبيّةً ورغبةً وشهوةً، أمَّا العقل بعد أن استنار أصبح عقلًا إنسانيًّا وعلى الدِّراية عدالة ومودّة ورحمة.

ومع أنَّ العقل فيه من الأميَّة ما فيه فطرة وشهوة، وله من الدِّراية ما له استنارة وحكمة، فإنَّه في كلتا الحالتين مقيّدٌ؛ ولذا فهو في زمن قيد الانتظار أميَّة معفو عنه فيما ارتكبه بلا دراية، أمَّا في زمن الصّحوة استنارة فقيوده دراية قد كثرت[117].

[117] عقيل حسين عقيل، العقل قيد (من الأمّية إلى الاستنارة)، مكتبة القاضي، القاهرة، 2022م، ص 8 – 70.

المؤلِّفُ في سطورٍ

ـ أ د. عقيل حسين عقيل

ـ مواليد ليبيا 1953م

ـ بكالوريوس آداب 1976م بدرجة الشّرف الترتيب الأوَّل جامعة الفاتح (طرابلس).

ـ معيد بكليَّة التربية طرابلس قسم الخدمة الاجتماعيَّة 1977م

ـ ماجستير تربية وتنمية بشريَّة، الولايات المتحدة الامريكيَّة (جامعة جورج واشنطن) 1981م مع درجة الشّرف.

ـ دكتوراه في الخدمة الاجتماعيَّة 1992م.

ـ أستاذ بجامعة الفاتح كلية الآداب (طرابلس).

ـ شغل منصب أمين عام اتحاد الطلبة بمحافظة سبها 1970 – 1972م.

ـ شغل منصب أمين تعليم بلدية طرابلس (1986 ـ 1990).

ـ انتخب من قبل مؤتمر الشَّعب العام مفتشا عامًّا لقطاع الشؤون الاجتماعيَّة، ثمّ كلِّف بالتفتيش على وزارتي التعليم العام والتعليم العالي 2006م.

ـ شغل منصب أمين التعليم العالي (وزيرًا) 2007 ـ 2009م.

ـ انتخب أمينًا عامًّا للتنمية البشريَّة بأمانة مؤتمر الشَّعب العام 2009م.

ـ صدر للمؤلّف 92 بحثا نشرت داخل ليبيا وخارجها.

ـ صدر له (208) مؤلّفا منها سبعة موسوعات.

ـ أشرف وناقش 83 رسالة ماجستير ودكتوراه.

ـ مجالات اهتمام المؤلف البحثيَّة:

1 ـ الخدمة الاجتماعيَّة والتنمية البشريَّة.

2 ـ طرق البحث الاجتماعي.

3 ـ الفكر والسياسة.

4 ـ الإسلاميات.

5 ـ الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلّفات باللغة الإنجليزية والتركية.

الموقع الإلكتروني: (موقع الدكتور عقيل حسين عقيل)

أو: https://draqeel.com/

صدر للمؤلّف

صدر للمؤلّف الدّكتور عقيل حسين عقيل: 92 بحثا نشرت داخل ليبيا، وخارجها.

صدر له (208) مؤلّفا منها: سبعة موسوعات، وهي:

1 ـ الموسوعة القِيميَّة لبرمجيَّة الخدمة الاجتماعيَّة (4 مجلَّدات)، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

2 ـ موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض (11 مُجلَّد)، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2009م.

3 ـ موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن (9 مجلَّدات)، المجموعة الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

4 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن (12 مجلَّد)، المجموعة الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

5 ـ الموسوعة من قيم القرآن الكريم (13 مجلَّد)، شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

6 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة (27 مجلَّد)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

7ـموسوعة الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (18مجلَّد).

أشرف، وناقش 83 رسالة ماجستير، ودكتوراه بالداخل والخارج.

ـ مجالات اهتمام المؤلف البحثيَّة:

1 ـ الخدمة الاجتماعيَّة، والتنمية البشريَّة.

2 ـ طرق البحث الاجتماعي.

3 ـ الفكر والسِّياسة.

4 ـ الإسلاميَّات.

5 ـ الأدب

تُرجمت ونشرت له مؤلَّفات باللغة الإنجليزيَّة، والتركيَّة.

المؤلَّفاتُ المنشورة

1 ـ مستوى التحصيل العلمي بمرحلة التعليم المتوسط، طرابلس ليبيا، 1989م.

2 ـ الأصول الفلسفيَّة لتنظيم المجتمع، منشورات جامعة طرابلس، ليبيا، 1992م.

3ـ فلسفة مناهج البحث العلمي، منشورات الجاْ، 1995م.

4 ـ منهج تحليل المعلومات وتحليل المضمون، منشورات الجاْ، مالطا، 1996م.

5 ـ سيادة البشر دراسة في تطور الفكر الاجتماعي، منشورات الجأ، مالطا، 1997م.

6 ـ المفاهيم العلميَّة دراسة في فلسفة التحليل، المؤسسة العربيَّة للنشر وإبداع، الدار البيضاء، 1999م.

7 ـ البُستان الحُلم، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1999م.

8 ـ التصنيف القيمي للعولمة، منشورات الجأ، مالطا، 2001م.

9 ـ الديمقراطيَّة في عصر العولمة (كسر القيد بالقيد)، دار الجأ، مالطا،

2001م.

10 ـ نشوة ذاكرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2004م.

11 ـ خماسي تحليل القيم، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

12 ـ منطق الحوار بين الأنا والآخر، دار الكتاب المتحدة، بيروت، 2004م.

13 ـ خدمة الفرد قيم وحداثة، دار الحكمة، 2006 م.

14 ـ خدمة الجماعة رؤية قيميَّة معاصرة، دار الحكمة، 2006م.

15 ـ البرمجيَّة القِيميَّة لمهنة الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدوليَّة للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

16 ـ البرمجيَّة القِيميَّة في طريقة تنظيم المجتمع، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

17 ـ البرمجيَّة القِيميَّة في طريقة خدمة الجماعة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

18ـ الموسوعة القِيميَّة لبرمجية الخدمة الاجتماعيَّة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2007م.

19 ـ البرمجيَّة القِيميَّة في خدمة الفرد، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

20 ـ مفاهيم في استراتيجيات المعرفة، الدار الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2008م.

21 ـ المقدمة في أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، بيروت ـ دمشق، 2009م.

22 ـ موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2009م.

23 ـ ألستم من آل البيت، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

24 ـ مختصر موسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

25 ـ خطوات البحث العلمي (من تحديد المشكلة إلى تفسير النتيجة)، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

26 ـ قواعد المنهج وطرق البحث العلمي، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

27 ـ أسماء حُسنى غير الأسماء الحسنى، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

28 ـ آدم من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

29 ـ نوح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

30 ـ إدريس وهود وصالح من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

31 ـ إبراهيم وإسحاق وإسماعيل ولوط من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

32 ـ شعيب من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

33 ـ يعقوب ويوسف من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

34 ـ داوود وسليمان من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

35 ـ يونس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

36 ـ أيوب واليسع وذو الكفل والياس من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

37 ـ موسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

38 ـ عيسى من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

39 ـ محمَّد من وحي القرآن، دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2010م.

40 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، آدم ونوح، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

41 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، ادريس ويعقوب ويوسف، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

42 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، أيوب وذو الكفل واليسع والياس، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

43 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، موسى وهارون وعيسى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

44 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، يونس وزكريا ويحيى، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

45 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، إبراهيم واسماعيل واسحاق ولوط، المجموعة الدولية للطباعة وألنشر، القاهرة، 2010م.

46 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، هود وصالح وشعيب، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

47 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، داوود وسليمان، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

48 ـ صفات الأنبياء من قصص القرآن، النبي محمَّد، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

49 ـ موسوعة صفات الأنبياء من قصص القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

50 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2010م.

51 ـ التَّطرُّف من التهيّؤ إلى الحلّ، المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

52 ـ ألسنا أمة وسطا، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

53 ـ المنهج وطريقة تحليل المضمون، ابن كثير، دمشق ـ بيروت، 2011م.

54 ـ الإرهاب (بين قادحيه ومادحيه) المجموعة الدولية للطباعة وانشر، القاهرة، 2011م.

55 ـ الخوف وآفاق المستقبل، المجموعة الدولية للطباعة والنشر، القاهرة، 2011م.

56 ـ سُنن التدافع، شركة الملتقى للطباعة وانشر للطباعة والنشر، بيروت: 2011م.

57 ـ خريف السُّلطان (الرَّحيل المتوقَّع وغير المتوقَّع) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011 م.

58 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم إقداميّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

59 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تدبُّرية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

60 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم وثوقيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

61 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تأييدية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

62 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم مناصرة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

63 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم استبصارية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

64 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تحفيزية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

65 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم وعظية) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

66 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم شواهد) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

67 ـ من قيم القرآن (قيم مرجعيّة) شركة الملتقى للطباعة وانشر، بيروت، 2011م.

68 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تسليمية) شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

69 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تسامح)، شركة الملتقي للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

70 ـ من قيم القرآن الكريم (قيم تيقُّنيّة)، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2011م.

71 ـ الرَّفض استشعار حرية، دار الملتقى، بيروت، 2011م.

72 ـ تقويض القيم (من التكميم إلى تفجّر الثورات)، شركة الملتقى، بيروت، 2011م.

73 ـ ربيع النَّاس (من الإصلاح إلى الحلّ) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011م.

74 ـ موسوعة القيم من القرآن الكريم، شركة الملتقى للطباعة والنشر، بيروت، 2012م

75 ـ أسرَّار وحقًّائق من زمن القذافي، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، ودار المختار طرابلس، 2013م.

76 ـ وماذا بعد القذافي؟ المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

77 ـ ثورات الرّبيع العربي (ماذا بعد؟) المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2013م.

78 ـ العزل السّياسي بين حرمان وهيمنة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

79 ـ السياسة بين خلاف واختلاف، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 3014.

80 ـ الهويّة الوطنيَّة بين متوقَّع وغير متوقَّع، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014.

81 ـ العفو العام والمصالحة الوطنيَّة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

82 ـ فوضى الحلّ، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، القاهرة، 2014م.

83 ـ بسم الله بداية ونهاية، القاهرة، الزّعيم للخدمات المكتبية والنشر، 2015.

84 ـ من معجزات الكون (خَلق ـ نشوء ـ ارتقاء)، المجموعة الدولية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2016م.

85 ـ مقدّمة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

86 ـ موسوعة الأنبياء من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

87 ـ آدم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

88 ـ إدريس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

89 ـ نوح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م 89 ـ

90 ـ هود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

91 ـ صالح من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

92 ـ لوط من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

93 ـ إبراهيم من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

94 ـ إسماعيل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

95 ـ إسحاق من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

96 ـ يعقوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

97 ـ يوسف من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

98 ـ شعيب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

99 ـ أيوب من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

100ـ ذو الكفل من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

101 ـ يونس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

102 ـ موسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

103 ـ هارون من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

104 ـ إلياس من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

105 ـ اليسع من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

106 ـ داوود من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

107 ـ سليمان من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

108 ـ زكريا من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

109 ـ يحيى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

110 عيسى من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

111 ـ محمّد من وحي القرآن والسنّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م.

112 ـ الدّعاء ومفاتيحه، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2017م.

113 ـ صُنع المستقبل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

114 ـ الفاعلون من الإرادة إلى الفعل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

115 ـ مبادئ التنمية البشريَّة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

116 ـ من الفِكَر إلى الفِكْر، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

117 ـ التهيؤ، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

118 ـ منابع الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

119 ـ الأمل، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2017م

120 ـ المبادئ الرئيسة للسياسات الرّفيعة، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة، 2018م.

121 ـ تحدّي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

122 ـ الواحدية من الخلق إلى البعث، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

123 ـ مبادئ تحدي الصعاب، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

124 ـ المعلومة الصَّائبة تصحح الخاطئة (من الخوف إلى الإرهاب) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

125 ـ الممكن (متوقَّع وغير متوقَّع) مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

126 ـ مبادئ فكّ التَّأزُّمات، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

127 ـ الأهداف المهنيَّة ودور الأخصائي الاجتماعي، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

128 ـ تصحيحا للمفاهيم (فاحذروا)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

129 ـ العدل لا وسطية ولا تطرف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

130 ـ غرس الثِّقة (مبدأ الخدمة الاجتماعيَّة)، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة 2018م.

131 ـ مفاهيم الصَّلاة والتسليم على الأنبياء، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2018م.

132 ـ الخدمة الاجتماعيَّة (قواعد ومبادئ قيميَّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

133 – كيفيَّة استطلاع الدراسات السَّابقة مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

134 – الخدمة الاجتماعيَّة (تحليل المفهوم ودراسة الحالة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

135 – الخدمة الاجتماعيَّة (مبادي واهداف قيميَّة) مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

136 – الخدمة الاجتماعيَّة (مفاهيم مصطلحات)، مكتبة المصرية، القاهرة، 2018م.

137 – التنمية البشريَّة (كيف تتحدّى الصّعاب وتصنع مستقبلًا)، مكتبة القاضي، القاهرة، 2018م.

138 - مبادئ الخدمة الاجتماعيَّة (تحدّي الصّعاب واحداث النُّقلة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

139 ـ الإرهاب بين خائف ومخيف، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

140 ـ التَّطرُّف من الإرادة إلى الفعل، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

141 ـ البحث العلمي (المنهج والطَّريقة) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2019.

142 ـ العدل ينسف الظُّلم، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

143 ـ تقويض الإرادة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

144 ـ القوَّة تفكّ التَّأزُّمات، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

145 ـ إحداث الثُّقلة تحدٍّ، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

146 ـ نيل المأمول قمَّة، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

147 ـ نحو النظريَّة خلقا، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

148 ـ نحو النظريَّة نشوء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

149 ـ نحو النظريَّة ارتقاء، مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

150 – الخلاف (في دائرة التَّاريخ) مكتبة القاضي، والمصرية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2020.

151- القواعد المنهجية للباحث الاجتماعي والقانوني، القاهرة: دار القاضي، 2220.

152 – قواعد البحث للعلوم الاجتماعيَّة والإنسانيَّة، 2020م.

153 – خطوات البحث العلمي وصناعة الأمل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

154 – المنهج العلمي واحداث النُّقلة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

155- دراسة الحالة ودور الأخصائي الاجتماعي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

156- قواعد البحث العلمي وصنع المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

157- وسائل التأهب للبحث العلمي، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

158- حلقات صناعة المستقبل، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

159- أمحمَّدٌ أميٌّ، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

160- طرق البحث العلمي ونيل المأمول، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

161- الطَّريقة العلميَّة لتحليل مضمون القيم، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2021م.

162-كسر الوهم، القاهرة: مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

163- معجزات وبعضها من بعض، المصرية، القاهرة: 2022م.

164 ـ أيد السارقِ تقطع، المصرية، القاهرة: 2022 م.

165 – العقل من اللاشيء إلى الشَّيء دراية، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

166 – النُّقلة من التكيف إلى التوافق، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

167 – أوهام الأنا (اللاهويَّة)، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

168 – استرداد السِّيادة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م

169 - موت الموت، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

170 – العقل قيد (من الأمّية إلى الاستنارة)، مكتبة القاضي، القاهرة: 2022م.

171 – الرّجال القوامة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

172- الدِّراية من الأمر إلى الطاعة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

173- النشوز والقيم القوَّامة، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

174 – استطلاع الدراسات السَّابقة (من حيرة الباحث إلى نيل المأمول)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

175 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (قواعد ومبادئ)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

176 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة، (غرسُ ثقة، تحدّي صِعاب، إحداثُ نُقلة)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

177 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (الدَّور المهني للأخصائي الاجتماعي)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

178 – الخدمة الاجتماعيَّة النّاهضة (من التكيُّف إلى صنع الأمل)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

179 – الخدمة الاجتماعيَّة النّاهضة (مجالاتها عمليَّاتها وسائلها)، المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

180 – الشَّخصيَّة (من الترجّي إلى التحدي)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

181 – الشَّخصيَّة الليبيَّة، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

182 – الشَّخصيَّة المتهيّأة، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

183 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (دراسة الحالة من النشوز إلى قطع اليد)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

184 – الشَّخصيَّة المتأهِّبة، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

185 – الانحراف من النّشوز إلى الضَّرب، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

186 – التدبُّر، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

187 – التفكير (من التذكُّر إلى التَّفكُّر)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

188 – الاستنارة (من الاستظلام إلى الاستجلاء)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2022م.

189 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (من إنجاز الأهداف إلى نيل المأمولات)، المصريّة للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

190 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (المستويات القِيميَّة للتحليل العلمي)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

191- الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (الأهداف المهنيَّة واحداث النُّقلة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القأهرة: 2023م.

192 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (تحدي الصِّعاب يمكن من بلوغ الغايات)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

193 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (من الإرادة إلى تفعيل المشاركة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

194 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (التطرف بين المعلومة الخاطئة والمعلومة الصَّائبة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

195 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (كيف تصنع أملا)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

196 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (الخوف استطلاع مستقبل من التذكُّر إلى التَّفكُّر)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

197 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (مجالات مهنة واستنارة عقل)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

198 – الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة (المبادئ القِيميَّة لرعاية الأفراد وتنظيم المجتمع)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

199 – الخدمة الاجتماعيَّة الناهضة (طرق متساندة مترابطة)، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

200 – موسوعة الخدمة الاجتماعيَّة النَّاهضة، الدار المصرية للطباعة والنشر، القاهرة: 2023م.

201 ـ الشَّخصيَّة الوطنيَّة الليبيَّة (سيادةً وهويَّةً)، دار النخلة للنشر، طرابلس: 2023م.

202 ـ أرسول ويغزو؟!، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.

203 ـ الخلق من العدم إلى الاستخلاف، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.

204 ـ الفضائل مصادر النِّعم، **مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.**

105 – الصّبر مفتاح التحدّي، **مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.**

106 – السيادة الوطنية إرادة وهوية، **مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.**

107 – **الفِكْرُ بين قضيَّة عقليَّة وأخرى، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.**

108 – العقل بين وهم واستنارة، **مكتبة الخانجي للطباعة والنشر، القاهرة: 2024م.**